تقديم

عرفت الأستاذ الدكتور السباعى محمد السباعى عندما دعانى للمشاركة فى ندوة الدراسات الشرقية فى خمسين عاما (جيل الرواد)، والتى دعا إليها ونظمها بوصفه مديرا لمركز الدراسات الشرقية ورئيسا لقسم الدراسات الشرقية وآدابها كلية الآداب فى جامعة القاهرة، و التى انعقدت فى شهر أكتوبر من عام ١٩٩٣م.

وقد كنت حريصا على حضور هذه الندوة وإلقاء كلمة عن أول هؤلاء الرواد المرحوم الأستاذ الدكتور/ عبد الوهاب عزام تحدثت فيها عن فكره العربى والإسلامى ودعوته إلى وحدة المسلمين وتضامنهم.

لقد تكرر اللقاء مع الأستاذ الدكتور السباعى والحديث حول فكر الأستاذ الدكتور/ عبد الوهاب عزام الإسلامى، وإعادة الصلة والترابط بين العالمين الإسلامى والعربى فى هذا الزمان؛ ولمواجهة الهجمة الغربية والعولمة التى يواجهها العالمين الإسلامى والعربى.

كان البحث والحديث عن المرحوم الأستاذ الدكتور/ عبد الوهاب عزام وما كانت له من شهرة ذائعة فى العالم كمفكر إسلامى وصاحب مؤلفات كثيرة متعددة بلغت ما يزيد على أربعين كتابا فضلا عن بحوثه ومقالاته الكثيرة التى تناولت كل ما يتعلق بنواحى الحضارة الإسلامية المختلفة وفكر المسلمين فى جميع دول العالم الإسلامى.

إن فكره وفلسفته يجب أن تمتد لجيلنا المعاصر وتقوية الروابط بين عالمنا العربى والإسلامى وألا نقف من هجمة العولمة الغربية التى نواجهها والتى باتت تهدد العالم وخاصة الحضارة العربية والإسلامية موقفا سلبيا.

إن الأستاذ الدكتور / عبد الوهاب عزام كان مدافعا ومناضلا للحفاظ على اللغة العربية ووقوفه ضد محاولات بعض المصريين من تغيرها وكتابتها بالحروف

اللاتينية، وقاوم هذا الاتجاه الذى ساد فى تركيا العلمانية وامتد منها إلى مصر.

عمل عبد الوهاب عزام على القضاء على هذا الفكر اللاتينى العلمانى حتى ماتت هذه الفكرة، وأصبحت اليوم فى طى الكتمان.

إن الأستاذ الدكتور/ عبد الوهاب عزام كان أول من أنشأ معهدًا عاليًا للغات الشرقية وآدابها عندما كان عميدًا لكلية الآداب بجامعة القاهرة.

عمل المرحوم الأستاذ الدكتور/ عبد الوهاب عزام سفيرًا فى السعودية ثم باكستان ثم سفيرًا لمصر فى السعودية مرة أخرى، فحقق فى سفاراته العديد من الدراسات والكشف عن المواقع الأثرية فى هذه البلدان (كسوق عكاظ) فى المملكة العربية السعودية، وبذلك جمع بين العلم والسياسة، ثم قام فى باكستان عندما كان سفيرًا بها بتأليف كتاب عن شاعر الإسلام العظيم محمد إقبال، وترجم له بعض دواوينه من الشعر الأردى والفارسى شعرًا عربيًا.

هذا وقد أسس فى خاتمة حياته جامعة الملك سعود بالرياض، وكان أول مدير لها، ولم يكن نشاطه العلمى والأدبى ليتوقف لولا نهاية الأجل وصعود روحه إلى بارئها فى ١٨ يناير ١٩٥٩.. رحمه الله وجزاه خيرا عن جهاده وعلمه فى سبيل العروبة والإسلام.

وباسم أسرة عزام ونيابة عنها أتوجه بالشكر لكل من الأستاذ الجليل الدكتور/ مصطفى الشكعة على تصديره هذا الكتاب، وما كتبه عن "أستاذه وشيخه" المرحوم الدكتور/ عبد الوهاب عزام فى كتبه ومؤلفاته الكثيرة.

كما أشكر الأستاذ الدكتور السباعى على هذا الكتاب القيم الذى أعاد به إلى جيلنا المعاصر سيرة مفكر عربى إسلامى، الأستاذ الدكتور/ عبد الوهاب عزام وفلسفته الإسلامية وجهاده لربط العالمين العربى والإسلامى.

ممدوح عزام
مستشار الأمين العام الأسبق
جامعة الدول العربية

تصدير واجب أداءً لدين

بقلم أ.د. مصطفى الشكعة

الحمد لله حمدًا يليق بجلال ذاته، وكمال صفاته، وعظمة آلائه، والصلاة والسلام على سيد خلقه، وخاتم أنبيائه، محمد المصطفى، الرسول المجتبى، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الطيبين، ومن اتبع هداه، وسار على نهجه، ودعا بدعوته، واستمسك بسنته إلى يوم الدين، وبعد..

فإن التاريخ حين يسجل علماء القرن الرابع عشر الهجرى الموافق القرن العشرين الميلادى، فإن اسم عبد الوهاب عزام سوف يحتل مكانًا متقدمًا، وموقعًا مضيئًا بين هؤلاء العلماء الأعلام، ليس على مستوى العالم العربى وحده، وإنما على مستوى العالم الإسلامى جميعه، ذلك أن عبد الوهاب عزا م كان موضع التقدير والاحترام فى جميع الأقطار الإسلامية، من الهند والباكستان شرقًا إلى الأقطار المغربية غربًا، خادمًا مخلصًا لدينهم، عالمًا بتاريخهم ولغاتهم، مولعًا بآدابهم وثقافتهم، صديقًا لعلمائهم ورجالاتهم، ولعله كان العالم الأوحد فى عصرنا الذى عاش حياته كلها محتفلاً بتراث أمته العربية الإسلامية، يجيد لغات شعوبها من عرب وفرس وترك وهنود، وأعنى بهذه الأخيرة اللغة الأردية، لغة عشرات الملايين من الباكستانيين، وجميع مسلمى الهند، الذين يربو عددهم على مائة وخمسين مليونًا من البشر، وما من لغة من هذه اللغات إلا وقد سجل أستاذنا بها علمًا، ونظم بها شعرًا، وخلد أمجادها وفضائلها فى أعطاف مؤلفاته النفيسة، التى أربت على الأربعين، هذا فضلاً عن مئات المقالات والأبحاث التى نشرت فى أمهات المجلات العربية والتركية والفارسية والأردية، فزينت صفحاتها، وعطرت ورقاتها، بحيث جعلتها زادًا طيّبًا لمغترفى

العلم، وموردا عذبا لطالبى المعرفة، الخالصة من كل زيف، البريئة من أى انحراف.

وإذا كان عبد الوهاب عزام يحتل مكانته المرموقة بين صفوة أساتذة الجامعات فى مصر وأقطار الوطن العربى، فإن تلامذته ومريديه قد حملوا الشعلة بعده، وساروا على دربه، والتزموا برسالته، يؤدونها فى نزاهة وثراء، الأمر الذى أهلهم لأن يصيروا - كل فى وطنه - من صفوة أبناء عصرهم فضلا وعلما، منتشرين فى جامعاتهم يزرعون المعرفة النافعة، وينشرون العلم الذى يجلب النور، ويبدد الظلمات.

وإن عبد الوهاب عزام فضلا عن ذلك كله، هو الأب الشرعى للجامعات السعودية، لأنه منشئ الجامعة السعودية الأم - جامعة الملك سعود - التى تفرعت إلى جامعات عديدة منتشرة كالنجوم فى أرجاء البلد العزيز، المملكة العربية السعودية، سهر على إنشائها، وغرس أصولها، وسهر على بنيانها، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة وأسلم الروح وهو متكئ على كرسى مكتبه فى رحابها فى الثامن عشر من شهر يناير ١٩٥٩م.

جوهر هذا الكتاب

إن الكتاب الذى بين أيدينا - عبد الوهاب عزام رائدا ومفكرا - هو ثمرة قلم أحد النابهين من تلميذ من تلامذة أستاذنا وشيخنا الدكتور عبد الوهاب عزام.. إنه الأخ الكريم، العالم الجليل الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب رحمه الله وعنه أخذ الدكتور السباعى محمد السباعى الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ورئيس قسم اللغات الشرقية بها، وأحد العلماء المعاصرين المنتجين فى حقل اللغات الإسلامية. شكر الله له عظيم وفائه، وحسن صنيعه، وما بذله من جهد، وما سجله من فضل، فى هذا الكتاب النفيس الذى يقدم من خلاله صفحات نقية غاليات، من الحياة العلمية، والثمرات الجنية التى أحسن أستاذنا عزام بك

غرسها، فكانت لطالبى العلم والأدب والحكمة والمعرفة ظلا ظليلا، وموردا عذبا، ونورا هاديا.

لقد جلس الأستاذ الدكتور السباعى فى قاعة الدرس نفسها التى قعدنا نحن فيها قبل عدة سنوات، استوعب فيها فكر أستاذه الدكتور يحيى الخشاب ما قد استوعبه جيلنا من أستاذنا سماعا وتلقيا، ثم قرأ مؤلفاته العديدة، ثم أقدم على خطوة كبيرة واسعة لم يسبقه إليها دارس من مدرسة عبد الوهاب عزام، تلك هى أنه تابع مقالات أستاذنا الوفيرة النفيسة، التى تحمل كثيرا من علمه وأدبه وبحوثه وفكره وجهاده، فى المجلات الأدبية التى كان أكثرها يصدر فى مصر، وأقلها يصدر فى بعض الأقطار العربية الإسلامية، ففى مجلة "الرسالة" على سبيل المثال نشر أستاذنا ثلاثمائة مقال، وفى مجلة "الثقافة" زهاء أربع وستين مقالة، هذا بالإضافة إلى مقالاته وبحوثه التى نشرت له فى مجلة كلية الآداب ومجلة المجمع العلمى العربى، وغيرها من المجلات العربية المرموقة.

هذه المقالات والبحوث تتناول العديد من موضوعات الآداب العربية والإسلامية، فضلا عما تناولته من فنون المعرفة الإنسانية، التى جعلت من أستاذنا عملاقا ينتظم سلك العلماء المسلمين الموسوعيين مما سوف نشير إليه تفصيلا فى الصفحات التالية، كما لا ينبغى أن نهمل الإشارة إلى ما نشره ضمن هذه الرسائل والبحوث من قصائده الشعرية التى قيلت فى مناسبات نبيلة، مصورة فكره وفلسفته ومشاعره، فى نهج متفرد غير مألوف عند شعراء عصرنا، وبعض ما سبقه من عصور.

إن مؤلف هذا الكتاب النفيس يشير إلى تلك المقالات من حيث كونها تلقى الضوء على فكر هذا الرائد العظيم والوقوف على كنه أفكاره، وإماطة اللثام عن مؤلفاته، وإبراز دوره الفكرى لأبناء هذا الجيل، وإسهامه فى إبانة ما سيطر على المجتمع المصرى والعربى والإسلامى من تيارات وآراء وقضايا، وإن محتوى الكتاب ومضامينه تنسجم فى كياسة وسلاسة مع ما سطرته يراع المؤلف وما بذله من جهد مشكور ووفاء مذكور.

مؤلفات الدكتور عزام :

يشير صديقنا وزميلنا الكريم الأستاذ المؤلف إلى مؤلفات أستاذنا محصيا إياها فيما يقرب من أربعين مؤلفا منها : الإسلام اليوم وغدا ، وديوان المتنبى تحقيقا وتصحيحا ، وذكرى أبى الطيب ، والشوارد ، وفصول من "المثنوى" لجلال الدين الرومى ، والنغمات ، والأوابد ، ومجالس النفحات لدى السلطان الغورى ، ومهد العرب ، والتصوف ، وفريد الدين العطار ، وموقع عكاظ ، والصلات بين العرب والفرس وآدابها فى الجاهلية والإسلام ، و"المثانى". وهذا الكتاب الأخير هو ديوان شعر أستاذنا ، هذا فضلا عن الكتب التى دبجتها بنانه عن محمد إقبال والعديد من شعراء الفرس والترك -حسبما نذكر بعد قليل.

إن أستاذنا عبد الوهاب عزام حين يتحدث عن الشعر العربى فى عصوره المختلفة ، يقرر ـ فى صدق ـ أنه لا يعرف أمة أخرى جارت العرب فى هذا الفن فى كل فنونه وصيغه وأغراضه ، وبخاصة الأخلاق والشجاعة والوفاء والحرية والإباء ومواساة الفقير ، والحدب على الضعيف.

إن الجهد الذى بذله زميلنا الفاضل الأستاذ الدكتور السباعى فى التوفر على متابعة التراث الوفير النفيس الذى خلفه أستاذنا ممثلا فى هذه الدراسة التى اضطلع بمثلها التلاميذ نحو أساتذتهم. ففى الأدب العربى تتبع مقالات أستاذنا عن أبى الطيب المتنبى بالإضافة إلى مؤلفين نفيسين ـ سبقت الإشارة إليهما ـ ثم عشر مقالات عن أبى العلاء المعرى ولزومياته ، والسرى الرفاء ، وابن المعتز ، وتميم بن المعز ، والأبيوردى الذى أطلق عليه أستاذنا شاعر العرب فى القرن الخامس.

وكان أستاذنا ـ رحمة الله عليه ـ يحتفل كثيرا بالملوك الفرسان وبخاصة إذا كانوا من رجال القلم والشعر ، فكتب مقالات عن الملك الفارس سيف الدولة بن حمدان ، الذى تعد مدائح المتنبى فيه عرائس ديوانه ، كما كتب عدة مقالات عن الملك الفارس المملوكى السلطان الغورى ، ثم التفت إلى الأفق الأندلسى الثرى السليب ، فخلب لبه الملك الفارس الجواد الشاعر المعتمد بن عباد ، فكتب عنه كتابا وإن يكن صغيرا إلا أنه يضم النمط الفكرى الأدبى الراقى الذى تميز به أستاذنا ، ثم أتبع ذلك بعدد من المقالات عن الأدب الأندلسى.

مكانة العروبة والعرب :

وللعرب والعروبة مكانة متقدمة فى فكر عبد الوهاب عزام وأدبه، فالعروبة وعاء الإسلام، ومن ثم كان اهتمامه بها كبيرا فتناولها فى أدبه تناولا متميزا أشار إليه مؤلف الكتاب الزميل الأستاذ الدكتور السباعى فى مقالات عناوينها: العروبة، اتحاد العرب، نهضة العرب، الجامعة العربية.. وإن السياق يستدعينى لأن أقرر أن أستاذنا قد شجعنا ونحن طلاب على إنشاء جامعة "الطلبة العرب" فى كلية الآداب، قبل أن تنشئ الحكومات العربية جامعتها، على ما سوف نذكره بشىء من التفصيل فيما يستقبل من الصفحات.

ومع احتفاله بالعروبة التى هى وعاء الإسلام حسبما أشرنا قبل قليل - وهى امتداد لعطائه الأدبى - كان أستاذنا يعيش الإسلام عقيدة وقرآنا وسلوكا، ومن ثم كانت مقالاته الفريدة الأربع عشرة التى يجىء فى مقدمتها الإيمان بالله ثم الإسلام ثم أخلاق القرآن التى منها موضوعات: العدل، والإحسان، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، والصبر، والعفو، والصدق.. ثم مقالاته فى "معجزات القرآن"، وفى التفسير، والحج، لعلها: رسول الله فى عرفات، وغار حراء، وحول الكعبة، والهجرة النبوية، ثم مقاله الجليل "فى مجلس رسول الله".

وأما القضية الفلسطينية التى هى فى جوهرها قضية إسلامية؛ لأنها قضية استعادة أرض المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، فقد خصها أستاذنا بمقالات ثمانية، هذا فضلا عن كفاحه فى سبيلها بالجهد وحسن السعى والمال، وختم أستاذنا هذه المسيرة الإسلامية بكتابه النفيس "الإسلام اليوم وغدا".

تصوف أستاذنا:

ولقد شملت هذه الدراسة القيمة التى ضمتها دفتا هذا الكتاب عناية أستاذنا بالتصوف والمتصوفة، فقد كان متصوفا فى حياته وسلوكه، ولكنه تصوف العلماء لا تصوف الدهماء. ومن هنا كان هدوؤه وتواضعه فى نطاق دائم من ابتسامة الرضا وعمق اليقين وحب الناس، والاستجابة إلى مطالبهم ما استطاع

إلى ذلك سبيلا، وليس ثمة شك فى أن ذلك السلوك هو السبب الأصيل فى احتفاله بمولانا جلال الدين الرومى وتراثه الصوفى الكبير وأيضا كتابه "التصوف وفريد الدين العطار"، وفى البحث النفيس الذى كتبه عن التصوف فى الشعر الإسلامى، والشعر الإسلامى الذى يعنيه أستاذنا هو الشعر الفارسى والتركى والأردى والعربى بطبيعة الحال.

رائد لغات الشعوب الإسلامية:

ومن منطلق العقيدة الإسلامية والأخوة الإيمانية كان اهتمام أستاذنا باللغات الإسلامية وآدابها من حيث كونها تراثا مشتركا لأمة الإسلام، حتى صار يلقب بحق "رائد الدراسات الشرقية الإسلامية"، فهو أول من فكر فى إنشاء معهد للغات الشرقية وأتبع تفكيره بالتنفيذ. وقد تخرج فى هذا المعهد الذى كانت فترة الدراسة فيه ثلاث سنوات عدد من العلماء الأجلاء، منهم العلماء الراحلون المرحومون بإذن الله الدكتور عبد النعيم محمد حسنين، والدكتور عبد الهادى محمد رضا منشئ جامعة البصرة وعالم العراق المعروف، والدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد. والدكتور محمد كفافى.

وكان الأدب العربى هو الأساس والمنطلق فى مناهج دراسة هذه اللغات الفارسية والتركية والأوردية، ولقد كان للفارسية نصيب الأسد من حيث الاهتمام بها والاحتفال بشعرائها، فأوضح أستاذنا كيف نشأ الأدب الفارسى فى كنف الشعر العربى، ومن ثم كان حديثه عن الشعراء ذوى اللسانين ـ أى اللسان العربى واللسان الفارسى ـ رشيد الدين العمرى المعروف بالوطواط وهو من أحفاد الفاروق عمر بن الخطاب، وبديع الزمان الهمذانى الكاتب الشاعر القصاص مبدع فن " المقامات" فى الأدب العربى، وقد حببه أستاذنا إلينا فى قاعة الدرس بحيث اخترته موضوعا لرسالتى التى حصلت بها على درجة الماجستير، وشرفنى أستاذى بالإشراف عليها، وقد كان بديع الزمان يستمع إلى القصيدة من الشعر الفارسى ويطلب إليه ترجمتها شعرا إلى العربية مع تحديد البحر والقافية ،فيقوم بالترجمة ارتجالا، الأمر الذى يبهر مشاهديه وسامعيه.

وقافلة الشعراء من ذوى اللسانين الذين كانوا محلاً لاهتمامات أستاذنا من الكثرة بمكان، ويجىء فى مقدمتهم أبو الفتح البستى وعطاء بن يعقوب الكاتب والبديع البلخى.

مع شعراء الفرس:

ومن شعراء الفرس الكبار الذين احتفل بهم أستاذنا واهتم بأخبارهم وعطائهم الأدبى والدينى: "الرودكى" شاعر الأمير نصر بن أحمد السامانى، ونظامى السمرقندى، وعبد الرحمن الجامى، ومولانا جلال الدين الرومى، ثم محمد إقبال.

ومن الطريف أن يكون هؤلاء الشعراء جميعًا من كبار شعراء التصوف، ليس فى الفارسية وحدها، وإنما فى اللغات الإسلامية أيضًا.

فمن أعمال أستاذنا فى هذا الصدد: فصول من "المثنوى" لجلال الدين الرومى، و"جهار مقاله" ـ يعنى المقالات الأربع ـ لنظامى عروض السمرقندى، "مثنويات" عبد الرحمن الجامى، مقتطفات من الشعر الفارسى والتركى والأوردى.

وقد اهتم أستاذنا ـ بحكم المعاصرة ـ بمحمد إقبال؛ فيترجم له "بيام مشرق" و"ضرب الكليم" و"ديوان الأسرار والرموز"، و"إقبال فى مسجد قرطبة"، وهى قصيدة كان إقبال قد أنشدها فى مسجد قرطبة القابع فى وسطها حتى اليوم شامخًا يمثل عظمة الإسلام، وروائع الفن الإسلامى فى العمارة والزخرفة من نقوش تخلب اللب وتشكيلات زجاجية ملونة تخطف الأبصار، وغير ذلك من فنون المسلمين الأندلسيين.

مع الأدب التركى:

وإذا كان أستاذنا قد احتفل بالأدب الفارسى وأدبائه هذا الاحتفال الكبير، فإنه لم يقصر فى عنايته بكل من الأدب التركى والأوردى.

يقول الصديق العالم الدكتور السباعى فى هذا الصدد: إذا كان عزام قد أولى

الأدب الفارسى والأدب العربى عناية كبيرة، فإنه قد اهتم بالآداب والدراسات التركية والأوردية حتى تكتمل منظومة اللغات والدراسات الشرقية.

والحق أن أستاذنا الدكتور عبد الوهاب عزام قد منح الأدب التركى الكثير من عقله ووقته وذوب نفسه، وليكن فى اعتبارنا أن الأدب التركى الإسلامى حديث عهد بالوجود إذا ما قورن بالأدب الفارسى، فالأدب التركى يعد ابنا للأدب الفارسى، والأدب الفارسى ابن للأدب العربى، ومن ثم يكون الحديث عن أدب نشأ متأخرا، أقل من حيث الكم لا من حيث الكيف عند الحديث عن أدب متقدم.

يقول الدكتور المؤلف: إن إستاذنا قد بدأ كتابته عن الأدب التركى بمقال له فى مجلة "الرسالة" فى مايو سنة ١٩٣٣ عنوانه: "الزامر الأعمى" للشاعر التركى الكبير والصديق الحميم للدكتور عزام هو محمد عاكف، والقصيدة منشورة فى ديوانه المعروف باسم "الصفحات"، وأن أستاذنا أطل على الأدب التركى من خلال دواوين الشعراء الأتراك "نجاتى"، و"ذاتى"، و"باقى"، و"نفعى"، و"نديم"، و"راغب باشا".

هكذا كان مدخل أستاذنا للأدب التركى مدخلا واسعا خصيبا، ومضى أستاذنا فى هذه الساحة الفسيحة دارسا الشعراء: "شناسى"، و"نامق كمال"، و"ضيا باشا" و"توفيق فكرت"، و"عبد الحق حامد"، وبقية الشعراء الأتراك العظام.

فإذا ما عاد الحديث بنا إلى محمد عاكف، فإننا نرى أستاذنا يقف طويلا أمام القصيدة الفريدة التى سلفت الإشارة إليها ـ الزامر الأعمى ـ ويترجمها نثرا تمهيدا لوضعها فى القالب الشعرى، ولكن وقته لم يسعفه لكى يستجيب لتلك الرغبة التى ظلت كامنة فى نفسه وضميره.

ومن الشعراء الأتراك الكبار الذين عنى أستاذنا بدراسة شعرهم وترجمة مختارات لهم إلى العربية الشاعر "إسماعيل صفا"، ترجم له أستاذنا إلى العربية قصيدة "الشيخ البائس"، وقصيدة "ليكن لك". وتلك بعض سطورها:

"ليكن لك ما غاب فى العالم من جمال وحضر، وما ظهر من حسن فيه واستقر، لتكن لك الدنيا دائمة السراء، والسعادة والصفاء، والسحائب بألوانها الباهرة، والصحارى بمرائيها الساحرة، كل ما ترنم به العشق من غناء، وما أفاضه الوجد على ألْسُن الشعراء، وهذه الحدائق بنفحاتها ونغماتها، وهذه القبة المنيرة بشموسها وسيَّاراتها، ومطلع الشمس فى روائه، والقمر فى لألائه، والأزهار، فى حلل من الشفق والأسحار، مزدهرة فى الغسق".

وأستاذنا يعد الشاعر "نامق كمال" أبًا للأدب التركى الحديث، ومن ثمّ عنى بالحديث عن نشأته ومسيرة حياته، فسجلها فى عبارات رشيقة، وكان لـ"شناسى" الأديب التركى الكبير وما كانت تحمله جريدته "تصوير أفكار"أثر كبير فى فكر "نامق"، فلما فرَّ "شناسى" من تركيا إلى باريس قام "نامق" على إثره فى شأن الجريدة، ونهض بها، فزاد انتشارها، حتى ضاقت الحكومة العثمانية ذرعًا بمحتواها وبمحررها؛ فعمد بدوره إلى الفرار حتى كانت "لندن" محطًا لسفرته بل ومهربه، وعمل بالصحافة فى "لندن" و"باريس" ودرس الحقوق والاقتصاد، ولما عاد "نامق" إلى وطنه لقى بعض المضايقات ولكن ذلك لم يمنعه من الكتابة وتأليف الكتب التى أهمها كتاب "الرد على المستشرق رينان عن الإسلام"، ونظرًا لوفرة ما أنتجه "نامق كمال" وخصوبته؛ أطلق عليه أستاذنا أنه خالق النثر التركى الحديث، وترجم له العديد من بدائعه، مثلما أطلق على صديقه ـ محمد عاكف ـ لقب "شاعر الإسلام".

وفى مسيرة الحديث عن الأدب التركى وأدبائه يقدم أستاذنا لقرائه شاعر الترك الأكبر "عبد الحق حامد" الذى تربع على عرش الشعر التركى أكثر من خمسين عامًا، ويختصه أستاذنا بدراسة نفيسة وترجمة زاكية، وأشار فى دراسة واعية إلى قصيدته الطويلة التى أطلق عليها عنوان: "المقبر" فى رثاء زوجته "فاطمة" التى توفيت أثناء رحلة عودتهما من الهند إلى استامبول، ودفنت فى بيروت، ولقد ترجم أستاذنا جانبًا من قصيدة "المقبر" نثرًا أورد الأستاذ المؤلف الدكتور السباعى نماذج منها فى نحو خمس صفحات تفصح عن شاعرية ساحرة، وعبقرية كاسحة، اتصف بها كل من الشاعر والمترجم.

إن القدر الذى قدمه أستاذنا الكبير عبد الوهاب عزام عن الأدب التركى والشعراء الأتراك، والصداقة التى ربطت بينه وبين بعضهم البعض، وفى مقدمتهم الشاعر"محمد عاكف" الذى استدعاه أستاذنا للتدريس فى الجامعة المصرية، إنما يشكل سجل فخار للأدب التركى، وشهادة تقدير لأستاذنا العظيم.

مع اللغة الأوردية وأدبائها:

ولما كانت اللغة الأوردية هى لغة مسلمى الهند، فإن الهند حين انقسمت إلى هندستان وباكستان؛ صارت اللغة الأوردية هى لغة باكستان، ولما كانت الهند دولة إسلامية لعدة قرون من الزمان؛ فقد اهتم أستاذنا بها تاريخا وأدبا معرفا بحكامها وسلاطينها العظام، مثل "بابر بن عمر" حفيد"تيمور لنك" الذى فتح "دلهى" وخطب له على منابرها سنة ٩٣٧هـ، وقد استمر حكم هذه الدولة المغولية للهند ـ وكان حكما بناء مثمرا إسلاميا ـ حتى سنة ١٢٧٥ هـ ـ ١٨٥٨م. وفى ذلك يقول أستاذنا الكبير الدكتور عزام: إنه لا يعرف دولة فى تاريخ الهند الجاهلى والإسلامى جمعت الهند كلها فى سلطانها إلا هذه الدولة.

وفى الأدب الأوردى تحدث أستاذنا عن "خسرو الدهلوى" أول ناظم باللغة الأوردية، و"نظام الدين أوليا" الذى كتب فى التصوف والتفسير والحديث، ونظم شعرا صوفيا، ويعده الناس من كبار الأولياء، ويسمونه "سلطان الأولياء".

مع إقبـال:

على أن الشاعر الذى نال من اهتمام أستاذنا أكبر قدر فى الأدب الأوردى هو الشاعر المسلم العظيم "محمد إقبال"، وقد توسع صديقنا الدكتور السباعى فى الحديث عن إقبال وعزام حديثا طويلا ممتعا ونفيسا، متمثلا بكثير من ترجمات أستاذنا لشعر إقبال وقصائده بالعربية الفصيحة المشرقة، بحيث يتخيل القارئ أنه يقرأ لإقبال بذاته، وثمة نماذج من ترجمة أستاذنا لبعض أبيات من شعر إقبال بالأوردية اختارها من ديوانه ـ ديوان إقبال ـ المسمى "بانك درا":

اخلقـن دنـياك كـى تحـيا بهـا سـر هـذا الكـون بالحـق الحـياه
هـى فـى الأحـرار سـر زاخـر وغديـر فـى حمـى الـرق الحـياه
تختفـى فـى الطـين سـرا وتـرى بقـوى التسـخير والخلـق الحـياه
هـى فـى الغافـل تـرب هامـد وهـى فـى اليقظان سيف جاهـد

* * *

اخلقـن فى الجسم روحا خالقا ثـم مـت للحـق فـى يـوم الجهـاد
احـرقن دنـيا أتـت عاريـة واخلقـن دنياك مـن هـذا الـرماد
ابـد نـورا خالـدا مـن شـرر وأثـر مـا فيك مـن معنـى الجـلاد
سـاعة الحشـروهذا المحشـر هـل لـدى العقـل خـير ينشـر

ومن ديوان "بال جبريل" ترجم أستاذنا هذه الأبيات من اللغة الأوردية:

حـرقة الآمـال فيـنا جوهـر لـيس فـى العـالم مـنه بـدل
ومقـام العـبد فـيها نعمـة بغنـى الأربـاب لا تسـتبدل
فهـنا المـوت يـرى قـيدا لـه وهـناك الخلـد قـيد يـثقل

ومن الديوان نفسه ترجم أستاذنا قصيدة للشاعر بعنوان "أمنية" وفيها يقول:

لقـيت دنـياى بالـنفور ضـل بضوضـائها سـرورى
قـد طفـئ القلـب هـل أرجـى مـن قـبس فـى الدجـى مـنير
أفـر مـن هـرجها ومـن لى بالصـمت مـن قـولها الكـثير

أستاذنا الدكتور عزام شاعرا:

يقول زميلنا العالم الجليل الدكتور السباعى مؤلف هذا الكتاب النفيس، مستهلا الفصل الذى كتبه عن شعر أستاذنا وملكة الشعر التى حباها الله إياه سلسة مطيعة بليغة معبرة مبينة ناعمة وقورة ثرية.

" ملك عزام ناصية العربية والفارسية نظما ونثرا وأضاف إليهما معرفة جيدة

بالتركية والأوردية، لذا لم يكن غريبًا أن يكون رائدًا مبدعًا ومتميزًا فى حقل الدراسات الشرقية، وبقدر اهتمامه باللغات الشرقية الإسلامية المختلفة من فارسية وتركية وأوردية فضلاً عن اللغة العربية التى هى الأم للغات الشرقية والإسلامية وآدابها، كان اهتمامه كبيرًا بتاريخ الشعوب وحضاراتها، وبدراستها جغرافيًا واجتماعيًا وسياسيًا فى ماضيها وحاضرها، وأمله فى مستقبلها".

من ثمّ شرع أستاذنا الكبير فى تسجيل ما تمده ملكته الخصيبة المعطاءة من بديع الشعر المسربل بجميل اللفظ ونبيل القصد، وقد تردد أستاذنا بعض الوقت فى اختيار عنوان مناسب لديوانه النفيس، وسوف نسوق حديث هذا الديوان على هذا النحو:

إن أول مرحلة يمكن البداية بها عند الحديث عن شعر أستاذنا الجليل المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام هى تلك المرحلة التى تلتصق بذاته النورانية وحياته الصوفية ممثلة فى ديوانه "المثانى" التى يعبر عن بدايته معها فى قوله:

"هذه أبيات نظمتها مثانى فى أوقات شتّى. خطرت لى فى الحضر والسفر حتى فى الطائرة، خطرت حين الفراغ وحين العمل، بالليل والنهار.

"نظمت الأولى منها فبدا لى أن أنظم أمثالها؛ وتوالت الخطرات وتوالى النظم. وكتبت ما نظمت فور نظمه أحيانًا. وكثيرًا ما نظمت فى الطريق فحفظت ما نظمت حتى تيسرت كتابته. ثم حرصت على أن أسجل وقت النظم ومكانه؛ ولكنى لم أثبتهما مع الأبيات لئلا أعنّى القارئ بهما، إلا أن يكونا متصلين بالمعنى، يتضح بهما، أو يكمل معهما، أو كان فى إثباتهما فائدة أخرى.

"نظمت الخطرة الأولى على شاطئ بحر العرب من مدينة كراجى يوم الخميس التاسع والعشرين من ذى القعدة سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة (٢١آب سنة ١٩٥٢م).

"ونظمت آخرها وأنا أكتب هذه المقدمة، يوم الأحد الثامن عشر من صفر ١٣٧٤هـ (١٧تشرين الأول ١٩٥٤).

"وإن توالى النظم من بعد على هذا النسق ألحق ما أنظمه بأخواتها فى الطبعة الثانية.

"ونشرتها كما نظمتها على ترتيب التاريخ ولم أجمع المتشابهات منها بالتقديم والتأخير، فرب بيتين فى معنى يبعدان مكانا عن أبيات أخرى فى معناهما، ويجاوران أبياتا لها معان بعيدة عنهما.

"وكتبت عنوانا لبعض المثانى توضيحا لفكرة اشتملت عليها، أو جمعا للمثانى التى تتوالى فى معنى واحد أو التى يجمعها مكان واحد أو زمان من الأمكنة والأزمنة التى رأيت أن أثبتها مع الأبيات؛ جمعت هذه تحت عنوان واحد وبينت تتابعها بكتابة حرف تجانب أرقامها".

ويمضى أستاذنا فى تبيان فلسفته السامية من كتابة هذه المثانى قائلا:

"وأدع للقارئ تبين ما فى هذه المثانى من دعوة إلى الجلال والجمال، والخير والحق، والأمل المشرق، والجد الدائب، والاستكبار على الدنايا ولقاء الحوادث بعدتها من الإيمان والصبر وما يتصل بهذه من معانى الحياة الكريمة".

ويمضى أستاذنا قائلا:

"وكان بدا لى أن أسمى هذه الأبيات رباعيات كاصطلاح أدباء الفرس فى الأبيات الثنائية، وكما بدا العرف بين أدباء العرب فى هذا العصر، ولكنى عدلت عن هذه التسمية بعد التأمل ...

"وقد تبين لى أن الرباعيات فى الفارسية والعربية لها وزن يخصها، ونظام فى القافية ينظمها، فليس كل ما نظم بيتين بيتين يعد رباعيا، لهذا رأيت ألا أسمى أبياتى هذه رباعيات إبقاء على الاصطلاح المتبع فى الأدبين العربى والفارسى، وسميتها المثانى إذ كانت الأبيات فيها مثنى مثنى.

وقد جاء فى القرآن الكريم:

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ

﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ﴿٢٣﴾﴾"[1]. ويمضى أستاذنا فى خشوع العابدين قائلاً:

"وحسبى فخرًا، وحسب هذه الأبيات صيتًا أن تسمى سمة مأخوذةً من القرآن، والحمد لله الملهم وهو حسبى وكفى".

لعل هذه أول مقدمة إيمانية بدأ بها شاعر مسلم افتتح بها ديوان شعره من حيث دعوته من خلالها إلى الجلال والجمال، والخير والحق، والأمل المشرق، والجد الدائب والاستكبار على الدنايا ولقاء الحوادث بعدتها من الإيمان والصبر، وما يتصل بهذه المعانى الكريمة، هذا فضلاً عن فخره ـ رحمه الله ـ أن تسمى هذه الأبيات سمة مأخوذة من القرآن الكريم.

وكعادة الأدباء ذوى الأصالة والعمق فى أعمالهم فإن الواحد منهم يقوم بإهداء عمله إلى من يؤثرهم بالحب ويخصهم بالود، فلمن من أحبائه أهدى أستاذنا كتابه؟؟ لقد أهداه إلى والديه على هذا النحو النبيل والنسق الجليل من خلال هذا الصوغ الرفيع الجميل: إلى والدىّ الكريمين رحمهما الله اللذين أورثانى فيما أورثانى: حب الخير، والخضوع للحق، والإباء على الباطل..

من وراء السنين أهدى كتابًا ... فيه من حكمة الحياة سطورُ
فى مكان بـه القريب بعيـد ... و زمـان بـه القليـل كـثُير

عبد الوهاب عزام

العقاد الكاتب المفكر العملاق يتحدث عن السفير الشاعر الصوفى:

إن العقاد عملاق الأدب المعاصر، "لا يعجبه العجب ولا الصيام فى رجب" طبقًا للمثل الشعبى الشائع، وقد عرفت العقاد عن قرب بغض النظر عن وشائج الاتفاق ومواقع الخلاف بين فكرينا، ولكنى من محبيه الذين يجلون شخصه، ويحترمون عقله، ويقدرون مكانته فى منظومة أعلام عصرنا أديبًا وناقدًا ومفكرًا،

---

(١) الزمر / ٢٣.

وكان أعيان زماننا من أصحاب الأقلام يتحاشون فى الحق والعقل قلمه ولسانه، ولكنى ـ وقد كنت قريبا منه ـ لم أره مجد فكرا كما مجد فكر أستاذنا عزام، ولا احتفى بشعر شاعر مثلما احتفى بشعر أستاذنا عزام، وأطلق عليه "السياسى السفير الصوفى"، ويكتب متطوعا مقدمة لديوان المثانى لم يكتب مثلها قبلا ولا بعدا فى نطاق الإطراء الجميل، والإعجاب النبيل، وقد ساق الدليل على كل محمدة، وجاء بالبرهان لكل حسن على حدة.

يقول العقاد رحمه الله: "كان أول ما قرأت من شعر الدكتور عزام ديوانا لطيفا جمع بين طائفة من مترجماته للشاعر المتصوف محمد إقبال الملقب بشاعر الإسلام، وطائفة من مبتكرات عزام فى المعانى الصوفية أو المعانى الروحية، وتشابه النسق فى الشعرين لأنهما فى العربية من كلام ناظم واحد، وتشابه الجوان، ولا أقول تشابه المعنيان، حتى لقرأت مثنوية لعزام حسبتها من كلام إقبال، ولم أصحح هذا السهو إلا بعد مراجعة وتحقيق.

لا يتشابه الجوان الروحيان هذا التشابه لأن الدكتور عزام يعجب بإقبال ويترجم كلامه إلى العربية، فلابد من سليقة صوفية فى روح شاعرنا العربى توحى إليه معانيه وخواطره، ولا شك أن الأصح من القولين أن هذه السليقة الروحية فى نفس عزام هى التى حببت إليه "إقبالا" ومالت به إلى الإعجاب بشعره، فهذه السليقة هى مصدر الإعجاب بإقبال. وليس الإعجاب بإقبال مصدرها الأول ومبعثها الأصيل."

إن العقاد أحد أكبر عمالقة الفكر والقلم فى العصر الحديث يمضى فى إظهار إعجابه الشديد ـ غير المسبوق ـ بأستاذنا وبشعر أستاذنا، بصيغ من الإطراء الصادق، وكلمات صافيات كأنها شلالات من نور على سبائك عسجدية بهذا النص البديع:

"وعدت أقرأ لعزام بعد ذلك الديوان اللطيف فلم يزل هذا الخاطر يثبت عندى ويتمكن كلما قرأت له جديدا من الشعر أو قديما فاتنى أن أقرأه فى حينه. ثم قرأت هذه المثانى وفى ذهنى هذا الخاطر فلم يزل يثبت كذلك ويتمكن كلما تتبعت أبياتها وموضوعاتها، حتى أكاد أنقل الديوان، أو معظمه، إذا أردت أن أسوق الشواهد على أصالة السليقة الصوفية فى نفس الشاعر العالم الأديب".

ونحن من جانبنا نتساءل: هل سمع أديب أو قارئ أن العقاد الذى ترفع عن مدح أى شاعر معاصر مهما بلغ مجده شهرة وسموا قولا مثل قوله فى شعر شيخنا وأستاذنا عبد الوهاب عزام، وذلك فى قوله ـ أعنى قول العقاد عن عزام ـ إنه لشدة إعجابه بشعر أستاذنا يكاد ينقل الديوان. ولكنه على الرغم من ذلك يقول عن شعر أستاذنا وعبقريته الشعرية الصوفية النورانية:

لا يحتاج أن يقتبس الصوفية من أحد من يلهمه ضوء القمر على صفحة البحر أن يقول:

أحسب البدر ساطعا نبع ماء ... فارجى لديه تطهير ذنبى
وأراه من الأشعة فيضا ... أتمنى لديه تنوير قلبى

أو يقول:

ذلك الماء والأشعة طهر ... وصفاء يخال نورا وبحرا
إيه يانفس فاطهرى وأضيئى ... وأشربن يا فؤاد صفوا وطهرا

على أن النورانية الكامنة فى شعر أستاذنا لا تلبث أن تلح على إعجاب العقاد فيقول هذا النهج الجديد من مشاركة شاعرنا شفافيته ونورانيته:

"فليس أشبه بفطرة المتصوف من تطهير النفس بجمال الكون ومن اتخاذ الجمال واسطة إلى الله، ولا يحتاج أن يقتبس الصوفية من أحد من يفرق بين شريعة الباطن وشريعة الظاهر هذا التفريق:

قيل هذا محلل لا تدعه ... قلت هذا الحلال عندى أثام
هو فى شرعة الفقيه حلال ... وهو فى شرعة القلوب حرام

فهذا ميزان التصوف من قديم الزمن للفضائل الظاهرة والفضائل الخفية، وقصة موسى والخضر عليهما السلام خير مذكر بهما من آى القرآن الكريم".

هذا بعض ما كان من أمر الكاتب الناقد الشاعر العملاق عباس العقاد مع شعر أستاذنا، غير أن ذلك لا يقلل من جهد صديقنا العالم الدكتور السباعى فى حسن التمثيل لشعر استاذه وأستاذى من مختارات جميلة أورد نماذج وردية من "المثانى" سجلها فى أعطاف كتابه النفيس، والتى منها:

أيها البحر

زاخـــر ثائـــر نهـــارا ولـــيلا[1] أيهـــا البحـــر مـــا هـــياج الـــبحور؟
هـل خـلا مـن هديـرك الدهـر يـوما أو سـيخلو علـى مـرور الدهـور؟

❖❖❖❖

تـرفع الشـمس عـن جمالـك سـترا ويصـــون الجمـــال ســـتر الظـــلام
يقـرأ الـناس مـن جمالـك سـطرا مـن حـروف الإصـباح والإظـلام[2]

❖❖❖❖

كلمـــا أظلـــم الطـــريق وأعـــيا وتـــناجت بيأســـها الـــركبان
أبصـــر الـــركب للمـــنازل نـــارا وهـــداهم إلى الـــديار أذان

❖❖❖❖

فى نور القمر

أحسـب البـد ر سـاطعا، نبـع مـاء فأرجـــى لديـــه تطهـــير ذنبـــى
وأراه مـــن الأشـــعة فيضـــا أتمنـــى لديـــه تنويـــر قلبـــى

❖❖❖❖

صـاح مـا اللحـن شـاجيا مـا الغـناء ما الوغى ما الضجيج ما الضوضاء؟
اتســـاق ووحـــدة وائـــتلاف أو نفـــار وفـــرقة وعـــداء

❖❖❖❖

إنمـــا الـــنفس وحـــدها نـــزعات شـــاردات تضـــل فـــيها الحـــدود
وهـــى بالحـــق شـــرعة ونظـــام وهـــى بـــالله عـــالم وخلـــود

❖❖❖❖

مـا إخـال الهـياج فـى غـير شـىء مـا إخـال الضـلوع مـنك خلـية
إن هـــذا هـــيام وجـــد فقـــل لى أى وجـــد حـــباك رب الـــبرية

❖❖❖❖

---

(١) كل رباعية فيها ذكر البحر من هذه الرباعيات أنشئت على شاطئ بحر العرب فى كراجى أو قريبا منها.
(٢) الخطاب للخلاق جل وعلا.

قلت: ماذا الهيام فى شهوات؟ قيل: هذى حياتنا فى الصميم
قتل: زيدوا حياة عقل وروح - إن صدقتم - إلى حياة الجسم[1]

❖❖❖❖

املأن بالتوحيد قلبا وإلا ملأته معابد الأوثان
واشغل النفس بالمعالى وإلا شغلتها وساوس الشيطان

إن ديوان المثانى الذى سطرته الملكة الشعرية العطرة لأستاذنا الكبير ضم مئتين وسبعا وسبعين من المثانى، تتضوع برحيق الإيمان، وتزدان بترانيم التوحيد، وتتزين بأنوار الحكمة، وتتجمل بمكارم الأخلاق، وقد عن لنا أن نختمها بتسجيل النفحة الأخيرة من قول أستاذنا:

أمل دائب وسعى دوام ووميض الأفكار معنى الحياة
يقظة العين للسبات ولكن يقظة العمر مالها من سبات

شعره فى غير المثانى:

لم تقف ملكة الشعر النبيلة بأستاذنا عند "المثانى" التى جلى جبينها، وحلى أعطافها صديقنا وأخونا الأستاذ الدكتور السباعى فى أكثر موضع من مواضع مؤلفه النفيس، وإنما امتد عطاء أستاذنا فى مسيرة الشعر النبيل ليشمل أبوابا أخرى شيدها بالكمال، وسربلها بالجمال، وربما قدم لقصيدته بكلمات من عطاء قلمه البليغ مثلما ما قد فعله عندما وقف على قبر صديقه إقبال يرثيه نثرا، ويبكيه شعرا. هناك فى حديقة الجامع الكبير الذى بناه السلطان محيى الدين فى أرباض مدينة "لاهور" وقف عزام يناجى صديقه وهو مسجى فى حفرته بكلمات طوال يقول فى بعضها:

"إقبال ياشاعر الإسلام، أنرت مقاصده، وجلوت فضائله، وأضأت سراجه، وأوضحت منهاجه، ودعوت المسلمين إلى المجد الذى يكافئ دعوتهم، ويلائم سنتهم، ويناسب تاريخهم ..".

---

(١) الحياة فيها جسم وروح وعقل. فلماذا يعنى فيها بالجسوم وحدها؟ إن أردنا الحياة حقا فعلينا أن نعنى بالثلاثة.

ويمضى أستاذنا فى مناجاته لصاحبه الصامت فى بيت الخلود مناجاة غير مسبوقة فى وفائها وبلاغتها وسموها وروحانيتها قائلا :

"إقبال ياشاعر الجمال، صورته فى الأرض والسماء، واليبس والماء، وفى الصحارى الجرداء، والحدائق الغناء، وفى الصبح والمساء، والضياء والظلماء، وصورته فى كل خلق كريم، وفى كل نزعة سامية ..".

"إقبال يا شاعر الجلال، جلوت عظمته فى الخالق والخليقة، وفى الهمم العالية، والعزائم الماضية، والآمال الكبيرة والمقاصد البعيدة ..".

ثم ينهى أستاذنا كلماته النثرية ليبدأ عزف جواهره الشعرية قائلا :

"وها أنا ذا أشرف بأن ألقى أمامك هذه الكلمات، وأودع ضريحك هذه الزهرات :

عربى يهدى لروضك زهرا ... ذا فخار بروضه واعتزاز
كلمات تضمنت كل معنى ... من ديار الإسلام فى إيجاز
بلسان القرآن خطت ففيها ... نفحات التنزيل والإعجاز
فاقبلنها على ضآلة قدرى ... فهى فى الحق (أرمغان) الحجاز

لقد ضمنت آثارك لك الخلود فى هذه الدنيا، وعند الله جزاؤك فى العقبى جزاء الصالحين المخلصين :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[1]

ومثلما وقف أستاذنا على ضريح صديقه إقبال شاعر الإسلام، فقد فعل الصنيع نفسه مع "الفردوسى" شاعر الفرس الكبير، وناظم الشاهنامة[2] العتيدة قائلا :

أبا القاسم اسمع ثناء الوفود ... تنظم فيك عقود الدرر
أبا القاسم اسمع نشيد الخلود ... يرتله فيك كل البشر

(١) العنكبوت / ٦٩.
(٢) معنى الشاهنامة : كتاب الملوك.

أبـا القاسـم اسمـع لسـان الـزمان ... يخلـدك، وهـو الضـنين، أقـر
فهـذى اللغـات وهـذى السـمات ... وهـذى الوفـود وتلـك الزمـر
تترجـم عـن غـرض واحـد ... ويـدركها فـى مـداك الحصـر
تطـيف بقـبرك صـرح العـلاء ... وبـاب الخلـود ومـثوى الظفـر
فـيالك قـبرا قـريب المـدى ... تظـل العقـول بـه فـى سـفر

❖❖❖❖

ويالـك قـبرا كعـين البصـير ... يحـوى العـوالم مـنها الصـغر
ويالـك قـبرا غـدا طلسـما ... وراءك كنـز الخلـود اسـتتر
ويالـك سـطرا بقـرآنه ... تضـيق الحـياة ويفنـى العمـر
ويالـك بيـتا سمـا شـعره ... بمعنـى الحـياة ولفـظ الحجـر
وأحجـاره كحـروف الهجـاء ... كـل المعانـى بهـا تسـتطر

❖❖❖❖

إمـام البـيان ورب القـريض ... وأصـبر مـن للقـريض صـبر
وسـباق حلبـته فـى الـورى ... ورب الحجـول بهـا والغـرر
ونـاظم عقـد علـى نظمـه ... تخـر الدهـور ومـا يندثـر
نظمـت الكـتاب "كـتاب الملـوك" ... ومـا هـو إلا سـجل القـدر

فنون أخرى من الشعر:

ولا يظن ظان أن أستاذنا الدكتور عبد الوهاب عزام كان بعيدا عن قول الشعر فى فنونه الأخرى، لقد كان يمارس الشعر فى تلك الميادين، ولكنه كان يتخير موضوعاته، وينزه قلمه وقريحته أن يخوضا فى موضوعات لا يجمل بمثله أن يطرق أبوابها، ومن ثم كانت قريحته الشعرية لا تتعامل إلا مع كريم الغرض ونبيل المقصد، وكان ينزهها عن قول كلمة متهافتة أو لفظة معيبة.

إن أستاذنا يرى زهرة ناظرة على ضفاف الماء وكيف تسر الناظر إليها، وتبهر العين حين تقع عليها، ثم يتصور مصير تلك الزهرة حين تذهب نضارتها، وتعبث بها يد العابثين فيقول:

يـا زهـرة فـى ضـفاف المـاء ناضـرةً ... يهتـز فـيها جمـالٌ جِـدّ مفـتونِ
وللنسـيم علـى أوراقهـا عـبث ... ينشـر الحسـن فـيه كـل مكـنونِ
تطالـع المـاء تبقـى فـيه صـورتها ... تـردها الـريح عـنه رد مغـبونِ
ويُـنفذ الدهـر فـيها حُكمَـه فـإذا ... شتى الـوريقات بـين المـاس والطـينِ
أيـن الشـباب الـذى راقـت نضـارته ... ورفـرفت فـوقه أحـلام مجـنونِ
أنضـرة الزهـر لم تثـبت لناظـرها ... أم صـورة المـاء بـين الحـين والحـينِ

أستاذنا يناجى صغيرته "هالة" ويداعبها:

كان أستاذنا كثير الأسفار والرحلات، وكانت هالة طفلة جميلة بريئة تلازم والدها فى أسفاره وسفاراته، وفى قراءاتنا الكثيرة مررنا بقصة الأعرابى الحكيم الذى سأله بعض القريبين إليه عن أحب أبنائه إليه، فأجاب تلك الإجابة الحصيفة: الغائب حتى يرجع، والمريض حتى يبرأ، والصغير حتى يكبر.

كانت "هالة" هى ذلك الصغير حتى يكبر، ولأن "هالة" هى الصغيرة التى لن تكبر لأن أخواتها الفضليات قد تزوجن وأنجبن، فقد ظلت هى الصغيرة، ولعل الأميركيين قد أخذوا تلك العادة عنا نحن العرب، لأن الولد الأخير عند الأمريكيين ـ ذكرًا كان أو أنثى ـ يظل "الصغير" حتى وإن شاب قرناه.

وكانت هالة هى رفيقة أبيها فى السفر، ومؤنسته فى الحل، وجليسته فى البيت، ومسامرته فى الحديث، وصانعة فنجان القهوة المتميز الذى يهواه والدها ويفتقده إذا غابت "هالة". وتصادف أن سافر أستاذنا إلى "كراتشى" وبقيت هالة فى القاهرة، فافتقدها والدها الجليسة والأنيسة والمؤنسة، وطاهية "فنجان القهوة" التى برعت فى إعداده، فكتب إليها هذه القصيدة التى تفيض شوقًا، وتذوب حنانًا، ولا تخلو من دعابة. وأستاذنا كان يجيد الدعابة، ولكن من ذلك النوع الوقور الذى يُطلق عليه دعابات العلماء.

أهالـــة إن شـــط المـــزار فإننـــى ... إلـيك علـى نـأى الـديار قـريب
حديثك عندى، والخيال يطيف بى ... لـه فـى خـيالى جيـئة وذهـوب
ولكننـــى والحـــق أشـــتاق قهـــوة ... يضـوع شـذاها مـن يـديك، تطيب
تـــزفينها بعـــد الطعـــام محـــرما ... لغـيرك فـيها شـركة ونصـيب
وأشتاق من شيخ الأرانب[1] مجلسا ... أحـدث فـيه والخـيال خصـيب
وخطـك مـا أمليه تسـطير حـاذق ... وضحكك منه، والحديث عجيب
وتصوير ما سطرت تصوير حاذق ... يـزيد بيانـى روعـة ويجـيب
لأذكـر صـفا للأرانـب قائمـا ... يصـلى منيـبا، مـن رآه ينـيب
يكـاد مـن الإتقـان يسـجد خاشـعا ... ويسـمع منه فـى الخشـوع وجيب
وجمعـا دعـاه للصـلاة مـؤذن ... وأحسـن فـيه قـارئ وخطـيب
فليتك عـندى، كـى أتـم حديثها ... وذلـك تحـديث إلى حبـيب

هذه القصيدة المرحة أنشأها أستاذنا يداعب بها ابنته "هالة" الحبيبة الصغيرة، وقد مضى الآن على كتابتها عدد من السنين صارت بعدها زوجة وفية لابن عمها صديقنا وحبيبنا المستشار الأستاذ ممدوح عزام فى بيت جميل يملأه الحب ويظله الحنان مع أبنائهما الأعزاء الذين نسأل الله لهم جميعا الصحة والسعادة والعمر المبارك فيه.

قلنا إن شعر أستاذنا عبد الوهاب عزام من الوفرة والنفاسة بمكان، وإن ديوانه "المثانى" متكامل فى نهج نظمه، ملتزما غرضا واحدا كما بينا ذلك قبل صفحات قليلة، ثم أتبعنا ذلك بنماذج من الشعر البهيج، وها نحن نقع على نفائس أخرى فى كتابيه: "النفحات" و "الأوابد". وقد بدا لنا أن نقدم منتخبات من كل كتاب، ولتكن البداية من كتاب "النفحات". وشعر "النفحات" له من تسميته نصيب كبير، فإن كل قصيدة جاءت بالكتاب إنما هى نفحة "عزامية" وضيئة وضاءة، تضيىء ظلام القلوب، وتهتك حلكة النفوس.

---

(١) "شيخ الأرانب" قصة خيالية مرحة كان أستاذنا يقصها مسلسلة على سمعها، والتى يبدو فيها أن "شيخ الأرانب" كان ذا عقل وفكر ومكر.

النفاحات

وفى النفحات يقول أستاذنا فى قصيدة "حديث النجوم":

قد سمعنا من النجوم حديثا ... وقرأنا سطور هذى النجوم
أن سيل الزمان بالناس ماض ... جرية النهر مزبدا بالهشيم
وسطور الأقوام تمحى وتنسى ... بهزيم الرياح أو بالنسيم
ويخط الأطفال فوق رمال ... ثم تمحو الأمواج كل رقيم
غير أن الكريم يثبت فى الد ... هر رسوخ الأطواد غير مليم
وبذور الخيرات تنمو وتجنى ... ثم تنمو على طريق قويم
فكن الحر لا تزلزل منه ... عصفة الريح أو هوى الرجوم
وافعل الخير جاهدا لا تبالى ... "وتوكل على العزيز الرحيم"

ومن "حديث النجوم" الممتع ينتقل أستاذنا إلى مناجاة "رمضان" وقد بدا هلاله يسعد كل من رآه:

يا هلالا على الليالى تهادى ... وتوالى شروقه والغروب
كم رآك الورى هلالا وبدرا ... كم تهاداك مطلع ومغيب
أخلاء رحابك الفيح أم تمشى ... عليها قبائل وشعوب؟
أهمو مثلنا، شقاء وسعد ... فى الليالى وراحة ولغوب
أهمو مثلنا، خصام وبغى ... وقتال وسالب وسليب؟
أهمو مثلنا، مضل وهاد ... وجهول وعالم وأديب؟
أم همو يا هلال أعلم منا ... طالعتهم بسرهن الغيوب؟
كل مسعى لهم لحق وخير ... كل ساع إلى أخيه حبيب؟
لم يرد الهلال سؤلى وولى ... يتهادى وسره محجوب

وما فتئ أستاذنا يربطنا بمعالم الإسلام ممثلة فى نجوم السماء غير المحددة، ثم بهلال رمضان الذى خصه الخالق بفريضة الصيام، ونزول القرآن، وليلة القدر، وغفران الذنوب، فيقول بارك الله قوله وتقبل عمله فى قصيدة عنوانها: "النظام والإسلام":

كـــلُّ شـــيء مقـــدَّرٌ مـــوزون ... أحكـم الـوزنَ مَـنْ بَـرَى الأشـياءَ
وضـع الميـزانَ الـذى وضـعَ الأرض ... وأعلـــى مـــن الســـماء بـــناءَ
ورأيـــتُ الإســـلام ديـــنَ نظـــام ... كـــلُّ مـــا ســـنَّهُ أراه ســـواءَ
والمقاديـــر والمواقـــيتَ فـــيهِ ... محكمـــات مـــن الشـــذوذ بـــراءَ
جعـل الصفَّ فـى الصـلاةِ وفى الحر ... بِ دلـيلاً علـى الـنظام اسـتواءَ
لـيت شـعرى أحائـدٌ عـن نظـام ... مـؤمنٌ بالتوحـيد قلـبًا أضـاءَ؟
إن ديـــن التوحـــيد ديـــنُ نظـــامٍ ... إنمـــا الـــنظم وحـــدةٌ، لا مِـــراءَ

وما برح أستاذنا ذاكرا لله مستغفرًا، ساجدًا لرب العزة متبتلا، وهو فى قصيدته هذه التى نظمها فجر الجمعة السادس والعشرين من رمضان سنة ١٣٧١ هجرية، الليلة الملامسة لليلة القدر، ومن ثمّ يجعل له عنوانا ربانيا.

إن القصيدة تحمل عنوان: "السجدة" وهو عنوان قرآنى، لأن كتاب الله عزّ وجل يضم بين سوره الكريمة "سورة السجدة"، ولأن آيات السجود لا تكاد تحصى فى القرآن الكريم، ولأن السجود لا يكون إلا لله، ومن سجد لغير الله ضل وكفر، ونحن نعوذ بالله من الكفر والضلال، وإن السجود مرتبط بالصلاة وبالحمد والشكر لرب العزة، وإن أطيب السجود بعد سجود الصلوات المفروضة، هو سجود التهَجد الذى لا يزال يؤديه فى الرحاب الربانية حتى يرفع أذان الفجر، وكانت السجدة التى سجدها أستاذنا هى سجدة فجر الجمعة السادس والعشرين من رمضان حسبما ذكرنا قبل سطور، والله سبحانه يقول فى سورة الإسراء فى محكم كتابه:

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾[1].

يقول أستاذنا طيب الله ثراه فى قصيدته "سجدة" وهى واحدة من "النفحات" العطرة المباركة:

ســجدةٌ تُخفِــض الجــباهَ ولكــن ... عــزَّ فــيها مُسَــبِّحٌ وتعــالى
ظــنها الجاهلــون غُــلاًّ ولكــن ... هــى، فــى الحــق، تحطــم الأغــلالا
تُثْـبِتُ الـوجه والجـوارح فـى الأر ... ض ولكــن تقلقــلُ الأجــبالا

(١) الآية / ٧٨.

خَـرَّ فـيها لسـاجدٍ كـلُّ شـيء ... ووعـى الدهـرُ قـولَهُ والفَعَـالا
هـى لله وحَّدَتْـه فعـزَّت ... ومحـت كـل غاشـم يـتعالى
فـى سـكونٍ، وللقلـوب مسـيرٌ ... يمـلأ الأرض همَّـةً وصـيالا
مَنْ وعاها وَعَى السيادةَ فى الأر ... ض جمـالاً ورحمـةً وجَـلالا

هذا بعض ما قطفناه من أزاهير كتاب "النفحات"، والبعض الذى لم يتسع المقام لذكره يمشى على النهج نفسه من الجمال، ويلتزم الدرب ذاته من الجلال.

ولكن فلتكن لنا نقلة أخرى إلى كتاب "الأوابد"؛ حيث ضم كل عجيب من أساليب البيان وحوى كل بديع من نفائس التاريخ وبدائع الأخبار التى يزين أستاذنا العديد من صفحاته بروائع الشعر وناضر القصيد، كل ذلك يجرى فى إشراق وتجديد، حافلاً بنماذج من الْخُلُقِ المجيد والتصوف الفريد.

يقول أستاذنا الشاعر الأديب، العالم الأريب، الحكيم اللبيب، الأخلاقى الفريد، الصوفىّ الوفىّ الدكتور عبد الوهاب عزام من قصيدة أنشأها فى فجر شبابه أو حسب تعبيره: من قصيدة طويلة نظمت فى عهد الصبا وعنوانها: **الإخوان**:

مـن لى بقـوم من الإخلاص طينتهم؟ ... لـدى الشـدائد والسـراء إخـوانُ
قـد حالفـوا الحـق لا يخشـون لائمـةً ... فـى الله ثبـتهم فـى الحـق إيمـانُ
إذا تنكـر جـبارٌ لهـم خشـنوا ... وإن تعـرض مسـكينٌ لهـم لانـوا
قـرت بهـم رجفات الدهر واتسقت ... للعقـل والعـدل والإحسـان أركـانُ
مـن كـل أروَع مـلءَ الدهـر عـزمته ... وهمُّـه فـى ضـمير الدهـر أشـجانُ
ترمـى الهمـوم بـه الأهـوال معتـزما ... يفـوت ظـن الـردى والمـوت خـزيانُ
مـرزَّأً يتلقـى الـرزء منصـلتا ... تنشـقُّ عـنه مـن الأهـوال أجفـانُ
فـذلك الطـود يجـرى حـوله نهـر ... مـن الخطـوب لـه بالـناس طغـيان
يـزلُّ عـن صـفحه الآذىُّ مصـطخبًا ... ومـا يلـين لمـرِّ المـاء صـوان
فاتـت مـآربُ أهـل الـذل قمـته ... فمـا يُذَلِّلُـهُ نَـيْلٌ وحـرمان
كأنـه، إذ يناجـى ربَّـه فـرحًا ... عمـا يكابـده فـى الأرض غفـلان

ومنها فى جماعة غير هؤلاء صغار الهمم، وضعاف النفوس:

لا يعرف الرزء فى الآمال واحدهم ... إن نـال مضـجعه والـبطن مـلآن
كأنمـا الفلـك الـدوار أرحـية ... للقوت، والشمس فى الآصال أفران

وإذا كان أستاذنا قد نزه نفسه عن قول الغزل حتى وهو فى ريعان الشباب، فإنه إذا ورد ذلك المنهل، اتجه إليه متأنيا، وقد حصن طهارة قلبه بغلالات واضحات المعالم، طاهرة القسمات من عبارات التصوف ولمسات الغرام. لقد كتب أستاذنا قصيدة طويلة جعل لها عنوانا كبيرا هو: "بين التصوف والغزل" أتبعه بعنوان صغير هو "زهرات ذابلات" حيث يقول:

أحـاذر فـى نجـواى بـث شـكاتى ... فأكـتم مافـى القلـب مـن حسـرات
ويغلبنـى وجـدى فألقـاك شـاكيا ... ولابـد للمصـدور مـن نفـثات
لقـد علمـت أخـت الملائـك أننـى ... مـن الغـم والأحـزان فـى غمـرات
وأن هـواها مسـتبد بمسـمعى ... وفـى كـل حسـى، مالـئ نظراتـى
ومـلء فـؤادى والأمانـى كلـها ... يـبرح بـى فـى يقظتـى وسـباتى
أروم اصـطبارا عـن لقـاك فأنثنـى ... إلـيك بمـلء القلـب مـن خفقـات
وألـتمس السـلوى لـديك فأنثنـى ... بـزاد مـن الأشـواق مسـتعرات

❖ ❖ ❖

إذا مـا دجـا بـالغم قلبـى أضـاءه ... كـواكب مـن ذكـراك والخطـرات
وإن جـنحت للشـر نفسـى هديـتها ... بذكـراك فارتـدت إلى الحسـنات
وإن أخلدت يوما إلى الأرض ردها ... هـواك إلى الأفـلاك فـى لمحـات
وذكرك قـد يجلـو عـن القلـب رينه ... فيسـطع فـيه الـنور حـين صـلاتى

❖ ❖ ❖

علـى أننـى يعتادنـى مـن تذكـرى ... لـواعج هـم مشـعل الزفـرات
هـى النور وهى النار والسلم والوغى ... بقلبـى ومـنها غبطتـى وشـكاتى

فأمنى وخوفى وهى أنسى ووحشتى وظلمـــة أيامـــى وضـــوء حياتـــى
فـيا قمـرًا إن غـاب عنِّـىَ نـوره فقلبـــى لـــيل مـــوحش الظلمـــات

❖ ❖ ❖

كتاب "الأوابد"

ومن خلال كتاب "الأوابد" يقدم أستاذنا الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام ضربًا جديدًا من الشعر، وضىء المحيا، جديد الصوغ، بديع القسمات، فيه ملامح بارزة من سمات الموشحات بحيث يمكن تسميته بـ "المثمنات"، لأنه يتكون من عدد من المقطوعات تتكون كل مقطوعة من ثمانية أبيات، ست منها على قافية واحدة، والبيتان الأخيران من كل مقطوعة مختلفان عن الأبيات الست السابقة، ولكنهما متفقان مع سائر الأبيات التى تنتهى بها المقطوعة فى الروىِّ والقافية بحيث تشكل المنظومة فى جملتها ضربًا من الشعر الإيقاعى الجميل مما جعلنا نميل إلى تسميتها طبقا لما ذكرناه فى صدر هذه الكلمات بالمثمنات، وإلى القارئ العزيز أنموذجًا شاهدًا عليها. وقد أطلق مسمًّى يحمل عنوان: "الشعر والشاعر"..

هـــو وحـــى فـــى شـــعاع القمـــرِ يمـــلأ القلـــب ضـــياءً وســـلاما
أو حـــديث فـــى حفـــيف الشـــجرِ أفشـــت الـــريح لـــه ســـرًّا فهامـــا
أو بكـــاء فـــى حـــنين الوتـــرِ مـــلأ الأنفـــس وجـــدا وغـــراما
هـــو طـــل الفجـــر فـــوق الزهـــرِ يمـــلأ الـــروض دمـــوعا وابتســـاما
ثـــم يـــبدو مـــثل قـــدح الشـــررِ بـــين خفـــق القلـــب والهـــم صـــداما
أو تـــراه كالوصـــايا العشـــرِ بـــين ومـــض البـــرق والـــرعد كلامـــا
ذلـــك الشـــعر إذا مـــا تـــرجما عـــن خفايـــا وحـــيه اللفـــظ المـــبينْ
رب شـــعر وحـــيه قـــد كَـــتَما أبلـــغ الأشـــعار مـــالا يســـتبينْ

❖ ❖ ❖

يخلـــق الشـــاعر خلقـــا آخـــرا مـــن خـــيال حائـــرٌ فـــيه المـــدى
يجعـــل اللـــيلَ غـــرابا طائـــرا خـــاف نســـر الصـــبح لمـــا أن غـــدا

ويـــرى الـــنجم شـــريدا حائـــرا هـــام يبغـــى فـــى الدياجـــى مـــوردا
ويضـــيق الـــناس عـــنه ثائـــرا فـــيرى القصـــة خلقـــا مســـعدا
يـــبرأ الأبطـــال فـــيها ســـاحرا فتراهـــم فـــى الـــبرايا خلـــدا
مـــثلا فـــى الـــبر يبقـــى ســـائرا أو حلـــيف اللعـــن يبقـــى أبـــدا

❖ ❖ ❖

كـــم هـــدى الشـــاعر قـــبلا أمـــا ودعـــا فـــيها إلى العـــز المكـــين
وبنـــى للمجـــد فـــيهم ســـلما فاســـتقاموا للمعـــالى صـــاعدين

❖ ❖ ❖

وجـــه مـــن يهـــواه روض ناضـــر ألفـــت فـــيه مـــن الســـحر معانـــى
ومـــن الطـــرة لـــيل كافـــر ضـــللت فـــيه دمـــوع وأمانـــى
دولـــة الحســـن، علـــيها ســـاهر نابـــل مـــن طـــرفه، والحاجـــبان
ومـــن الهجـــر جحـــيم ســـاجر ومـــن الوصـــل فـــراديس الجـــنان
غضـــبة الشـــاعر لـــيل زافـــر جلـــل الأرض بـــنار ودخـــان
ورضـــا الشـــاعر صـــبح ســـافر مـــلأ الأرض بـــنور وأمـــان

❖ ❖ ❖

يصـــبغ العـــالم ماشـــاء كمـــا لعـــبت باللـــون أيـــدى الـــراسمين
فـــإذا شـــاء أراه مأتمـــا وإذا شـــاء فعـــرس الفـــرحين

إن الحديث عن أستاذنا كشاعر حديث طويل، يتكشف من خلاله أن عصرنا قد أسقط من خلال حديثه عن شعرائه العظام إبداعا وتجديدا وترجمة ـ عمدا أو غفلة ـ أحد أبرز حكماء العصر، فقد آن الآوان لهذا الطراز من الرواد الذين قدموا من سخاء ملكاتهم وعطاء شاعريتهم مالم يستطع غيرهم أن يقدمه، فإن الزمان الخصب حين يطلع على دنيانا سوف يضع كل أمر فى نصابه، وحتى نخفف على القارئ بعض ما يجد، فإننا نختم هذا القطاع من هذه المقدمة بأبيات ترجمها أستاذنا لأبيات قالها مولانا جلال الدين الرومى بحيث يبدو جلالها فى

ثوب من الصيغة العربية، وتتجلى صنعتها الشعرية مساوية لجلال كلمات مولانا جلال الدين حكمة ورونقا ونورانية وبهاء.

يقول أستاذنا مترجما هذا الأبيات فى يسر ووضاءة:

رأيت الشيخ بالمصباح يسعى ... له فى كل ناحية مجال
يقول: مللت أنعاما وبهما ... وإنسانا أريد، فهل ينال؟
برمت برفقة خارت قواها ... برستم أو بحيدر اندمال[1]
فقلنا: ذا محال. قد بحثنا ... فقال: ومنيتى هذا المحال

❖ ❖ ❖

مساجلات عزام ودفاعه عن العربية:

لقد أولى صديقنا العالم الجليل الدكتور السباعى اهتماما كبيرا بمساجلات أستاذنا مع غيره من علماء عصره وأدبائه، وهو ما يطلق عليه بعض النقاد مصطلح (المعارك الأدبية)، ولكن أستاذنا الدكتور عبد الوهاب عزام كان ـ لأدبه الجم ـ ينفر من استعمال تلك المصطلحات التى توحى بالخصومه، وتشى بالعداوة، وكان يطلق عليها مسمى "المحاورات"، ومن ثم لم يكن يصدر عنه لفظ خشن أو تعبير جاف، وإنما كان يصوغ آراءه فى ثوب من الكلمات المهذبة حتى ولو كان الطرف الآخر قد حاد عن الطريق المهذب والأسلوب اللائق.

هكذا أوضح صديقنا الدكتور السباعى ترفع أستاذنا فى محاوراته مع الآخرين، سواء أكانت بينهم مودة سابقة، أم كانوا من المحاورين الطارئين على ساحته النقية.

ولعل من أوليات هذه المساجلات وبواكيرها، تلك التى جرت على صفحات مجلة الرسالة فى صيف سنة ١٩٣٣ بين أستاذنا وبين أستاذ آخر لنا نحبه ونجله هو الأستاذ أحمد أمين.

وتعد هذه المساجلات بين الأستاذين الجليلين ـ وقد أورد الأستاذ المؤلف نماذج منها ـ النهج الأمثل فى أدب الحوار.

---

(١) حيدر هو على بن أبى طالب، ورستم أحد أبطال الفرس.

كان أستاذنا حين يرد على مقال الأستاذ أحمد أمين، يقول فى أدب شديد غير مسبوق فى أساليب من سبقوه: "هذا رأى الأستاذ، وأنا له مخالف"، ويسوق أسباب الخلاف فى إطار من المودة، وقالب رفيع من أدب الحوار، ويقول إنه ما جادل الأستاذ أحمد أمين إلا حبًا له وتعظيمًا.

يقول أستاذنا هذا القول فى الوقت الذى ينادى فيه الأستاذ أحمد أمين "باصطناع لغة خالية من الإعراب وخالية من الألفاظ الضخمة ومستعملة للكلمات العامية". لقد تناول الحوار المكون من عدة مقالات أولها حلقات الدعوة إلى العامية والشعر الجاهلى والشعر العربى بعامة والتجديد فى الأدب، والموشحات والمقامات، وإيراد كثير من التصويبات التى قدمها أستاذنا فى أدب جم وسماحة موفورة، وإنهاء الحوار الذى نال اهتمام المتأدبين فى ذلك الوقت المبكر بتوجيه الشكر وإسداء الحمد للأستاذ أحمد أمين، لأن حلقات الحوار كانت ذات فوائد جمة للمتأدبين والدارسين، وأنها لم تخل من جهد مبذول، بغض النظر عن بعض القصور الذى شاب رأى صديقه الأستاذ أحمد أمين.

الدفاع عن الخط العربى:

وتلك سلسلة أُخرى من المقالات تناولت حوارًا بين أستاذنا وبين الأستاذ عبد العزيز فهمى (باشا)، ولكنْ ثمة فرق كبير بين هذا الحوار وبين سابقه، ذلك أن الحوار السابق جرى بين عالمين جليلين موصوفين بالحكمة موسومين بالاتزان، وأما هذا الحوار فإن طرفيه مختلفان شكلاً وموضوعًا، فمن حيث الشكل كان أستاذنا هادئ الطبع حكيم الرأى خزانة للعلم والأدب والدين، وكان الطرف الآخر ضيق الصدر سريع الغضب، يتناول فى حواره موضوعًا غريبًا عنه، لقد كان عبد العزيز (باشا) فهمى رجلِ قانون، ولم يكن عالم لغة ولا متبحرًا فى الدين، وكان موضوع الحوار شائكًا، لأن عبد العزيز فهمى يطالب بإلغاء الخط العربى أو الأبجدية العربية واستبدال الحروف اللاتينية بهما. مرة أُخرى نقول كان الموضوع شائكًا لأن الأبجدية لم تصبح عربية وحسب، بل صارت إسلامية يستعملها الفرس والترك والهنود والمسلمون الذين احتفظوا بها حتى انقسمت الهند إلى دولتين هما الهند وباكستان.

وقد تناول أستاذنا موضوع الأبجدية العربية تفصيلاً منذ نشأتها والمراحل المتعددة التى مرت بها، يقول مالها وما عليها، ويشير إلى بعض القصور الذى يسهل تلافيه، كما استعرض أستاذنا المحاولات العديدة السابقة التى بُذلت لاستبدال الحروف العربية والأخذ بحروف فارسية، والحروف اللاتينية بالحروف العربية.

لقد عرض المؤلف الجليل لتلك المحاولات ومراحلها وجهود أستاذنا فى إجهاضها بتوسع وتفصيل وإيضاح، حتى كُتب لها الفشل وفرّ عبد العزيز باشا فهمى من المعركة التى كانت ساحتها مجمع فؤاد الأول للغة العربية، وكان أستاذنا ـ رحمه الله ـ لا يرى فى الحرف اللاتينى فائدة، وإنما هى فتنة من فتن أوربا للعرب والمسلمين ولغة القرآن الكريم.

أستاذنا يكتب عن الإسلام:

إن أستاذنا عبد الوهاب عزام بحكم بيئته "العزّامية" وتكوينه الدينى والثقافى والفكرى والاجتماعى، لا نكون مبالغين إذا قلنا إن مؤلفاته التى لا تحصى كانت جميعها فى صلب الإسلام عقيدة وإيمانًا وحضارةً وتاريخًا ودعوةً وتبشيرًا، وقد قام زميلنا وصديقنا مؤلف هذا الكتاب النفيس بإحصائها وتسجيلها على مختلف موضوعاتها، وتعدد لغاتها، بل إن الأستاذ المؤلف الدكتور السباعى قد أحصى لأستاذنا ثلاثمائة بحث ومقالة فى مجلة الرسالة، وجميعها فى الإسلام أصولاً وفروعًا وعقيدةً وتشريعًا، كما أحصى له أربعة وستين بحثًا ومقالة فى مجلة الثقافة، هذا غير ما نشره أستاذنا فى المجلات الثقافية الأُخرى وبخاصة مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ـ القاهرة الآن ـ وهو الاسم الذى كانت تعرف به أيام كان أستاذنا رئيسًا لقسم اللغة العربية وعميدًا لها، وأيام كنت أنا وجيلى من أترابى طلابًا بها.

لقد مرت الإشارة قبل صفحات إلى الموضوعات التى كان يتناولها قلم أستاذنا، وكلها عن الإسلام وعلومه والمسلمين وأحوالهم ومشكلاتهم. كان عبد

الوهاب عزام يتنفس الإسلام شهيقًا وزفيرًا، وكان يتمثله إيمانًا وعقيدة، وكان يتخلق به قولاً وفعلاً، وبسيرة رسول الله سليقةً وطبيعةً. كان مسلمًا فى يقظته ونومه، وليله ونهاره، وحله وترحاله.

فلم يكن غريبًا إذن أن تكون كل مؤلفاته ـ فضلاً عن مقالاته ـ حول الإسلام بداية ونهاية، وإذا كان المقام لا يتسع للتعامل معها، فليس ثمت كبير ضير فى أن نختار كتابين أو ثلاثة ليتعرف القارئ الكريم على "عبد الوهاب عزام" مؤلفًا كبيرًا ومعلمًا عظيمًا، وأستاذًا جليلاً، من خلال بعض صفحات هذا البعض من المؤلفات.

ولتكن البداية بكتابه "النفحات" الذى سبق أن قدمنا منه نماذج من شعر أستاذنا، وقلنا إنها نفحات ربانية ونفثات إيمانية.

ولنترك أستاذنا يقدم للقارئ مقدمة تعرفه بـ "النفحات".

النفحات

مقدمة:

"هذه كلمات من النثر وأبيات من الشعر. كتبتها فى رمضان من ثلاث سنوات:

بدا لى وأنا فى كراجى أول رمضان عام سبعين وثلاثمائة وألف، أن أخط كل ليلة مقالاً قصيرًا فيما يخطر من خاطرات الوقت، وما يسنح من سانحات الفكر، ويسر الله الكتابة فوفيت بما وعدت به نفسى.

وكرَّت الأيامُ كرورَها، ومرت الشهور مرورها، فإذا رمضان من عام واحد وسبعين، وإذا أنا لا أزال فى كراجى. فرأيت أن أعالج كل ليلة أبياتًا أُقيِّدُ بها خَطْرةً شاردة، وأسجل فيها فكرة واردة، فنظمت أبياتًا كل ليلة.

ورأيت أن أطبع ما نثرت وما نظمت حينما قدمت إلى القاهرة منذ ثلاثة أشهر. فقدمته إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر.

ورجوت أن ترسل إلىَّ تجارب الطبع فى كراجى، وسافرت، وسئلت عن اسم الكتاب حينئذٍ فقلت: لا أدرى، وسأسميه من بعد.

وقبل أن ينجز طبع الكتاب أقبل رمضان الثالث، رمضان سنة اثنتين وسبعين. فبدا لى أن أكتب كلمات بين النظم والنثر كل ليلة. والتزمت أن أخط كل ليلة عشر سجعات، وأُلحق بها بيتين من الشعر. ومضى رمضان وقد وفيت بما التزمت.

وعرض لى القدوم إلى القاهرة فألحقت هذه الكلمات بما قدمت إلى المطبعة قبلاً. وسميت هذه الطوائف الثلاث من الكَلم: "النفحات". أوحى إلى هذه التسمية كتاب الشيخ عبد الرحمن الجامى المسمى "نفحات الأنس من جنات القدس".

والله أسأل أن يلهمنا ويعلمنا ويهدينا، ويرزقنا الإخلاص والسداد فى الفكر والقول والفعل. وهو حسبنا ونعم الوكيل".

إن كتاب النفحات يضم نحو تسعين "نفحة": الثلاثون الأولى منها جاءت كل واحدة فى شكل مقال يقع فى صفحتين ونصف صفحة، وموضوع النفحة قيمة إسلامية يصوغها قلم أستاذنا فى سلاسة ويسر ورشاقة، وهى فى جملتها رمضانية المعالم، ثقافية الهدف، أخلاقية المنتمى، مثل: هلال رمضان، سنن رمضان، من مزايا رمضان، كلٌ يسبح، الصيام، زيدى وإمامىّ فى التراويح، وهكذا كل "نفحة" تشكل متعة روحية إذا قرئت، ومدرسة أخلاقية إذا حكيت، وعبادة ربانية إذا مورست.

وقد اخترنا "نفحة" بشكل عشوائى عنوانها: "سنن رمضان" كتبها أستاذنا فى ليلة الجمعة ٢ رمضان ١٣٧٠هـ، وإلى القارئ الكريم نصها:

سنن رمضان:

لرمضان سنن، تنبغى العناية بها، وعادات تحسن المحافظة عليها. فالاجتماع لصلوات التراويح من السنن التى تزيد فى جمال رمضان وجلاله، والسهر فى الدور الكبيرة من المدن والقرى لسماع القرآن من العادات الحسنة التى تميز هذا الشهر، وتزيد إلى خير الصيام خير سماع القرآن. والتزاور فى ليالى رمضان يزيد الأُلفة بين الناس، ويقرن تزاورهم بالعبادة، ويجعل هذا التزاور مسحة من الدين، وصلة بإخوة الإسلام، بل هذه الأطعمة التى يعنى بها الناس فى رمضان من خيرات هذا الشهر ومزاياه، تسر الناس فى غير ضرر، وتمتعهم دون إفساد، مالم يغلوا ويسرفوا. ولعب الأطفال بالمصابيح الملونة وسيرهم فى الطرق منشدين أناشيد رمضان، سرور وجمال وإحياء لرمضان، وإشاعة لبرِّه بين الصغار. والمسحِرون يطوفون بطبولهم وأغانيهم على علاّتها، وعلى ما فى هذا الطواف من إيقاظ النائم قبل موعد السحور وبث الضوضاء فى هدوء الليل، هم من بركة هذا الشهر ومسراته وبهجته ورونقه.

فالذين يستهينون بهذه السنن، لا يعرفون الحقائق ولا يدركون ما لسنن الأمم من آثار فى معيشتها وأخلاقها، والذين يحقرون عادات رمضان غافلون عما وراءها من معانٍ جديرة بالإكبار، حرية بالبقاء.

لقد بلينا بالعبودية النفسية التى أُجلَّتْ فى أعيننا ونفوسنا عادات غيرنا، وأصغرت عاداتنا. فمنا الذى هجر سنن رمضان وازدراها، ومنا من شارك فيها غير حفى بها ولا بصير بمعانيها سيرًا مع العادات، وحياءً من الناس.

كنا نعيش فى دورنا، وهى مجامعنا وأنديتنا، تؤلف بيننا وتحكم فينا التعاون والتآخى. فنشأت لنا عادات صالحة، واليوم نعيش فى غير الدور، بل نعيش فى غير أنفسنا، فتمحى السنن الصالحة، والعادات الطيبة، ونحن شاعرون أو غير شاعرين.

ولولا أن كلمتى هذه مقصورة على رمضان لذكرت كثيرًا من العادات النافعة، والآداب الصالحة، التى تزول من بيننا سنة بعد سنة، ونحن من الغفلة أو

من احتقار أنفسنا، وما يتصل بها لا نبالى بها ونهجرها ونستبدل بها عادات طارئة لا رأى لنا فيها ولا عمل ولا نفع. إن رمضان شهر عبادة ورياضة وبر، وإنه شهر فرح وبهجة، وزينة ومتعة، فلنحرص على عبادته ورياضته وبره، ولنحرص على بهجته وسروره وزينته، ولنحذر أن نفقد سننا الصالحة فنعيش بغير سنن أو على سنن سيئة أو سنن غريبة لا تعرفنا ولا نعرفها، تقبل علينا تقليدا، ولا نملك فيها لأنفسنا تصريفا، لم ننشئها ولم نخترها، فلا نسكن إليها ولا تسكن إلينا".

وينقضى عام ويفد عام ومعه رمضانه لسنة ١٣٧١، وفيه يمتعنا أستاذنا بثلاثين نفحة كلها من نبع إيمانه وعطاء بيانه، وقد اختار أستاذنا أن تكون "النفحات" الثلاثون من روائع شعره الذى يمتع القلوب المؤمنة، ويسعد النفوس المطمئنة، وإلى القارئ الكريم النفحة التى جادت بها قريحة أستاذنا فى ليلة الخميس ٤ رمضان من عام ١٣٧١.

خلوة

إن فى خلوة النفوس لأنسا ... ليس كفئا لخلوة كل نفس
هى فى ضجة الأنام سكون ... يسمع القلب عنده كل همس
وهى فى فرقة النفوس اجتماع ... ترهف النفس عنده كل حس
وهى فى فسحة الخيال انطلاق ... دون قيد من الجليس وحبس
هى هدى العقول بعد ضلال ... فى خداع من الحياة ولبس
هى فى ظلمة الليالى ضياء ... لا تراه النفوس فى ضوء شمس
من يضق بالخلاء نفسا فإنى ... أجد الخلوة الطويلة أنسى

ويحول الحول ويهل علينا من خلاله رمضان جديد لعام جديد ١٣٧٢، وينفحنا أستاذنا ثلاثين نفحة فى ثوب نقى من القول المشرق الأخاذ، وغلالة شفافة من النثر المسجوع سجعا رطيبا، الذى يفوح مسكا وطيبا.

فبأى نفحة استقبل أستاذنا هذا الهلال الجديد لرمضان جديد، لنترك أستاذنا يجيب ويبدع ويسبح فيمتع.

حال الحول

هذا الفلك الدوار، المتقلب بالليل والنهار، يقلب لك صفحات، ويملى عليك عظات. فاسمع عظاته، وسطر صفحاته. سطر الباقيات الصالحات، واملأ صحائفك بالخيرات، وابسم للظلام والضياء. ودع قول أبى العلاء:

إن دنياك من نهار وليل وهى فى ذاك حيَّة عرماءُ

فبياض دنياك والسواد، هما للعمل صفحة ومداد. أُجد الإنشاء والتعبير، وأُحسن التنميق والتسطير. وزد على توالى الصفحات إتقانًا، وعلى مر الساعات إحسانًا. واصل الأمل والعمل، واكتب ولا تملُ، وامض على الطريق، وسل الله التوفيق.

إن دنيــاك من نهــار وليــل وهى فى ذاك صفحة ومداد
فافعل الخير والجميل وسطِّر أسطرًا يستضىء منها العباد"

تلك نماذج ثلاثة أُخذت عفوا من تسع وثمانين نفحة، قدم فيها أستاذنا ما نعتبره فنا من فنون القول، جديدا غير مسبوق صيغةً أو موضوعًا، فإذا كان ابن عبد ربه ـ فى قولٍ ـ قد ابتكر الموشحات، وإذا كان (بديع الزمان) قد أبدع المقامات، وكلاهما فن من الإبداع جديد، فإن أستاذنا عبد الوهاب عزام ـ بحق ـ هو منشئ فن "النفحات".

❖ ❖ ❖

كتاب الأوابد:

هذا الكتاب لون آخر ومنهج متغير من المؤلفات التى أمتعنا بها أستاذنا وسوف يمتع بها الأجيال القادمة إن شاء الله، وقد اختار له أستاذنا ومعلمنا اسما يروق القارئ، ويُعجب الأديب هو (الأوابد) ومعنى الأوابد الشىء الغريب. ومفرده آبدة، ومن أوابد الكلام أى غرائبه، وأوابد الدنيا دواهيها، وتأبَّد بمعنى توحش. وكان أستاذنا وهو يختار هذا العنوان ليس بعيدًا عن هذه المعانى ولكن على سبيل

المجاز والتشبيه أكثر منه على سبيل الحقيقة الماثلة. وهى فى جملتها ـ كما يقول أستاذنا الدكتور عبد الوهاب عزام ـ : "كلها وحى العقيدة، واستجابة الوجدان، لم يشبها ـ بنعمة الله ـ تكلف ولا تَزيّد ولا رياء".

فلندع أستاذنا يسجل لنا الظروف والأسباب التى دعته إلى كتابتها وتسميتها فى المقدمة النفيسة الموجزة التى قدم بها "الأوابد". يقول أستاذنا طيب الله ثراه:

"هذه الكلمات أنشأتها فى أوقات متباعدة، ومواطن مختلفة، وأحوال شتى، ولكنه كانت كلها وحى العقيدة، واستجابة الوجدان، لم يَشُبُها ـ بنعمة الله ـ تكلف ولا تزيد ولا رياء.

"وقد وفَّرت حظها من النزعات الروحية العالية، التى تسمو بالإنسان عن الأهواء التى تتقسمه، والمطامع التى تستعبده؛ ومن المقاصد الجليلة التى تجمع النفس على خطة من الخير والحق، وتؤلف الناس كلهم على شرعةٍ من الإنصاف والعدل".

وما أحوجنا فى عصر سيطرت فيه الآلات والشهوات، إلى تحرير النفوس من سلطانها.

ويجد القارئ إلى جانب المقاصد الإنسانية الشاملة، نزعات إسلامية، وأخرى عربية، فلا يحسبن هذا تناقضًا فى الرأى، واضطرابًا فى الوجدان؛ إنما هى صور من الجمال والحق والخير ومكارم الأخلاق، تتجلى فى الخليقة كلها أحيانًا، وتتمثل فى تاريخ الإسلام ومآثر العرب أحيانًا؛ ولن ينقص الحق أن تحد زمانه من تاريخ الإنسان، أو مكانه فى مواطن البشر، كما لا ينقص النهر الذى يفيض على أقطار شاسعة بالرى والخصب، أن تبين منبعه، ولا يجد الضياءَ الذى يغمر العالم، أن تعيِّن مصدره". ويمضى أستاذنا مكملاً حديثه بكلماته المضيئة وتوجهاته المؤمنة قائلاً:

"وقد سميته "الأوابد" لحسبانى هذه الأفانين من الكتابة غريبة فى موضوعها وأسلوبها، ولأنها لبثت حقبة مهملة شتيتة فى أوراقى، فكانت فى هذين الوصفين كالأوابد من الحيوان، التى تغرب عن البشر، وتنفر من الحضر،

وتعيش متأبدة فى الفيافى ؛ ولا أزعم أنها من أوابد الكلم، وهى التى لا تشاكل جودة، كما يقول الزمخشرى.

وبعد لا أقول شيئا من طرائق هذه المقالات ومزاياها، ولكن أدع للقارئ رأيه حرا. وحسبى أنها بيان صادق عن عقلى وقلبى، وأنى أردت بها الحق والخير، وابتغيت وجه الله، وهو حسبى وكفى".

إن الشىء الجميل الجدير بالذكر أن أستاذنا حين كتب مقدمة الطبعة الثانية من "الأوابد" سجل لقارئه كلمات تعنى أن ثلاثة من موضوعات الطبعة الأولى لم تكن موضع رضاه، ليس بسبب شىء يعيبها، وإنما لأنها غير منسجمة مع موضوع الكتاب ولا محتواه، وذلك فى كلمات ناعمة وألفاظ وادعة، حيث يقول:

"ولو استقبلت من طبع الكتاب ما استدبرت، لحذفت كلمات ثلاثا، لا أجدها على شرط الأوابد: كلمة قصيرة ارتجلت على قبر الزهاوى شاعر العراق. وهى أقصر من أن تسلك فى الأوابد، والكلمة التى عنوانها "النشر فى مصر"، والأخرى التى عنوانها "النهضة" فهما على جودتهما ليستا من جنس الأوابد فى موضوعهما.."

ولكى يتنسم القارئ الكريم بعض طيب ما تضمنته "الأوابد" من أريج فلا بأس من أن نقرا معه "آبدة" أو اثنتين، فنختار له عفويا على النحو الذى فعلناه مع النفحات، ولتكن "آبدة" مناجاة التى صاغتها يراعة الخصيب على هذا النحو الأريب.

مناجـاة

رب! سبحت لك الخلائق فى الأزل، نطقت بذكرك منذ الخلق الأول، ودارت الأفلاك بحمدك وسطعت الكواكب بنورك، وسار القمران ثناء عليك، وتعاقب الملوان تقديسا لك، وهبت الرياح بنفحاتك، وتلألأ البرق من سبوحاتك، وسار السحاب بقدرتك، وهطل الغيث برحمتك، وتلاطمت البحار فى جلالك، واطردت الأنهار من نوالك، والجبال راسيات بأمرك،

ماثلات لحكمك، والغابات رائعة بجمالك، مورقة بأفضالك، والرياض سطور نظامك الباهر، وإبداعك القادر، والطير ألسنَة حمدك وشكرك، ونغمات مزاهرك، وأناشيد مآثرك.

أنت لهذا النظم بيت المَطْلَع وأنت أنت فيه بيتُ المْقطَع

والحيوان الأعجم مسير بإلهامك، شاكرٌ لإنعامك، سائرٌ بهديك، ناطقٌ بذكرك، مسبحٌ بحمدك. ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[1].

رب! والإنسان صُنعك الرائع، وبرهانك القاطع، روح الخليقة المشوق إليك، وبصرها الطامح نحوك، رأى نورك فسار، وبهره جلالك فحار. أنت قصده وإن ضل، وَطلِبَته حيثما حل، يبين عنك قاصدًا ومعتسفًا، وينطق باسمك صحيحًا أو محرفًا، وينشد شعرك موزونًا أو مضطربًا.. ومعجمًا أو معربًا:

وألسنةُ الأكوان إن كنت واعيًا شهود بتوحيدى بحالِ فصيحةِ

وإن عبدوا غيرى وإن كان قصدهم سواى وإن لم يظهروا قصد نيتى

عبدة الأصنام عبدوك من وراء حجاب، وتوسلوا إليك بالأسباب. والساجدون للنار تهافتوا على ضيائك، وهُرِعوا إلى سنائك. قدسوك فى إحدى آياتك، وعظموا لك إحدى علاماتك. وعباد الكواكب اهتدوا بالنجوم إليك، فسبحوا لها، وإنما ثناؤهم عليك. أنت أنت القصد وإن جاروا، وأنت أنت المعبود وإن حاروا. وكهنة طيبة ومنف أشادوا بذكرك، وجهدوا أن يقدروك حق قدرك، وبابل فى زيغها لم تكن إلا بابًا لك[2] ونينوى فى وثنيتها كانت معبدك.

أقاموا من أجلك التماثيل، ولاح لهم نورك من خلال الأباطيل. واليونان ألّهوا آثارك، وأكثروا أسماءك. وما أثينا وزوس وأبولون إلا رموزُ حكمتك

---

(١) الإسراء / ٤٤.

(٢) أصل بابل: "باب إيل" ومعناه باب الله.

وقدرتك، وعلمك وعظمتك. ألفاظ شتى لمهنى موحد، وصور شتى لجوهر فرد، كالماء نبت منه الحلو والمر، والعقيم والمثمر، ودل عليه النجم والشجر، والشوك والزهر.

رَبِّ! وهل رتَّل البراهمةُ إلا فرقانك، وطلبوا فى الكهوف إلا عرفانك؟ وهل انفتحت عن بوذا زهرة الكنج إلا لذكرك[٣]، وهل هجر العالم إلا لوجهك؟ وهل أملى كونفشيوس إلا تعليمك؟ وهل أراد زردشت إلا ذكرك؟ وهل ضمن كتاب الأبستاق[١] إلا حمدك؟ يزدانُ "أهريمن" من رمز نورك وظلالك[٥].

رَبِّ! وموسى إذ لاح له ضياؤك فى الغلس، وخلع نعليه فى الوادى المقدس، لمع له بصيص فى الطور فاهتدى، ودعا الناس إلى الهدى. بنورك ضرب بحر الظلمات فانفلق، ثم بهره جلالك فصعق. وعيسى أمددته بروحك وبرك، وأطلعته على ذرة من مكنون سرك. ومحمد خاتم أنبيائك، وصفى أصفيائك، آنسه ذكرك فى الغار، فرأى فى الظلمات النهار، فأملى دينك وفرقانك، وأضح محجتك وبرهانك، وترك على الدهر أثرك الأغر، ودينك الأبر.

رَبِّ! ومن وراء ذلك سرك المكنون، وحماك المصون.

أنقذنا من الحيرة بهديك، واهدنا إلى جنابك برحمتك. اللهم منك وإليك، أنت الأول والآخر، والظاهر والباطن...

وأما الآبدة الثانية فهى "وِرد الصباح"، ولفظ الورد ـ بكسر الواو ـ مصطلح صوفى يشتمل على صيغة من صيغة تسبيح الخالق جلَّ وعلا، يرددها العابد كل صباح، أو كل مساء أو فى كل من الصباح والمساء.

فلنقرأ معًا الصيغة التعبدية التى كان يقرأها أستاذنا كل صباح، والأوراد تكون فى الأصل من تأليف شيخ "الطريق"، ولكن "وِرد" أستاذنا قد أفلح من اتخذه من القراء "وردًا" للصباح.

---

(٣) كتاب آوستا (أبستاق): كتاب زردشت نبى الفرس القدماء.

(١) كتاب آوستا (أبستاق): كتاب زردشت نبى الفرس القدماء.

(٢) يزدان خالق الخير أهريمن" من خالق الشر، فى دين الفرس القدماء.

ورد الصباح[1]

تنفس الصباح فى غسق الليل ولاحت غرته فى هدوء السحر، والنور يسيل من ربا المشرق قليلًا قليلًا، ويولد اليوم الجديد.

ربِّ فأضئ عقلى بالهدى، ورغب نفسى فى الحق والخير، وأملأ قلبى بالأمل، وقوِّ يدى على العمل. اشرح صدرى وأشدُد أزرى، واشحذ عزمى لليوم الجديد.

ربِّ قد طويتُ من عمرى صفحات، ونشرت اليوم صفحة، فاجعل صفحتى هذه أوعى للخير، وأخلى من الشر، وزينها بالحق، وبرِّئها من الباطل، واجعل فاتحتها وخاتمتها بالإخلاص لك، والعمل لوجهك.

ربِّ إن عقلى يخضع بالوهم، ويقنع بالظن، ويَلبس الحق بالباطل، اللهم فاهدنى وثبتنى، وأرشدنى وعلمنى، واجعل البرهان الواضح حجتى، والحق البين عقيدتى؛ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت علام الغيوب.

ربِّ إن قلبى يشوبه الهوى، ويستهويه الباطل، فخلص اللهم قلبى من الأهواء، واملأه بحب الحق؛ إنك أنت الحق المبين!

رب وإن نفسى تنزع إلى أن تتزيد فيما لها، وتبخس ما لغيرها، وتُحمد بما لا تفعل، وتغمط غيرها ما فعل؛ اللهم فأشرب قلبى العدل فيما بينى وبين نفسى، وفيما بينى وبين الناس، واجعل حق غيرى أحب إلىَّ من باطلى، ورضاك آثر عندى من كل شىء!

رب إن الناس يركنون إلى الدعة، ويعذِّرون فى الواجب، فاجعلنى دائبًا على العمل، لا أملّ؛ قوَّامًا بالواجب، لا أعتل.

ربِّ وإن الناس ينزعون إلى الظلم، ويجنحون إلى المحاباة، ويُرضون أنفسهم بباطل يزينونه، وحق ينكرونه، اللهم فبغض إلىَّ الظلم والمحاباة وهوَى النفس، واجعل العدل والحق ملء نفسى وقلبى وقولى وعملى.

---

(١) ١١ من ذى القعدة سنة ١٣٥٧هـ ـ ٢ يناير سنة ١٩٣٩م.

ربِّ وإن نفسى تنزع إلى إرضاء الأقوياء، والاستهانة بالضعفاء، اللهم فاجعل الناس سواسية عندى، واجعلنى حربًا على الأقوياء المبطلين، نصيرًا للضعفاء المحقين، لا تطبينى فى حق رغبة ولا رهبة، ولا يأخذنى فى الصدق خوف ولا رجاء.

اللهم إن الناس استهوتهم الشهوات، وعبدتهم المطامع، تُضلهم الكبرياء، فيصدِفون عن الحق، وتضرعهم الذلة، فيخنعون للباطل، فاجعلنى اللهم متواضعًا لا تزهونى نخوة، وقويًا لا تأسرنى شهوة، وحرًا لا يُعبدنى مطمع، واملأ قلبى على الصغائر، وأنفةً من الدنايا.

اللهم إن القلوب قَسَت، والنفوس أجدبت، والوجوه وقِحَت، فاملأ قلبى رحمةً لكل إنسان، ونفسى شفقة على كل حيوان، وأدبنى بأدبك، واجعل فكرى وقولى وفعلى برًّا ورحمةً وإحسانًا.

اللهم واجعلنى فى الحق جريئًا لا أخاف، ومقدامًا لا أحجم، ومحاربًا لا أجبن؛ عدوًا للباطل جريئًا عليه، محبًا للحق خاضعًا له.

اللهم اجعل لى من ذكرك قربًا وأنسًا، ورجاءً وثباتًا.

اللهم إنى أستقبل يومى مؤمنًا بك، متوكلاً عليك، مخلصًا لك، مجاهدًا فيك، راغبًا إليك، مستمدًا منك.

فأضئ عقلى بالهدى، واملأ قلبى بالأمل، ورغِّب نفسى فى الحق والخير، واشرح صدرى، واشدد أزرى، واشحذ عزمى لليوم الجديد.

سبحانك لا إله إلا أنت الحق المبين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

❖ ❖ ❖

إن كتاب "الأوابد" يضم اثنتين وثمان وثمانين آبدة، يقف المرء أمام كل واحدة من هذه المنح الإلهية سابحًا فى ملك الله، متأملاً فى آيات الخالق وقد استغرقه الإيمان، ولفّه اليقين فى غلالات من نور، تزرعه كل آبدة فى النفس زرعًا ناميًا، وتغرسه فى شغاف القلب غرسًا عميقًا، بحيث تكون ثمار الغرس والزرع عقلاً مؤمنًا، وإيمانًا راسخًا، وإنسانًا مطمئنًا، وكيف لا وهو يقرأ هذه الأوابد: رسول

الله فى عرفات، فى مجلس رسول الله، بلال يؤذن، الكعبة، الإمام محيى الدين النووى، عمر فى بيت المقدس، موقعة عين جالوت، مصطفى صادق الرافعى، عقبة بن نافع على شاطئ المحيط، والمثنى بن حارثة، سعيد بن جبير، وغير ذلك من ذخائر الدنيا وخزائن الآخرة.

الشوارد

هذا عنوان كتاب آخر من تلك النفائس التى صدرت عن قلم أستاذنا عبد الوهاب عزام، وما أكثر النفائس التى سطرتها يراع هذا القلم.

إن هذا العنوان ليس بالجديد على الخاصة من القارئين، ومن ثم فليست العبرة بالتسمية، ولكنها تكمن هنا فى المحتوى أو المحتويات التى تضمنتها صفحات هذا الكتاب، فهى مجموعة كبيرة من "الخواطر" بلغت عدتها خمسًا وستين وثلاثمائة ومائة خاطرة بعدد أيام السنة الميلادية.

بقول أستاذنا فى نهاية مقدمة كتابه:

"وقدرت لكل خاطرة صفحة من دفتر اتخذته، ولكن اختلفت السطور طولاً وعددًا باختلاف الخطرات فلم تتساو الصفحات.

وكتبت كل يوم صفحة، إلا أيامًا صُرفتُ عن الكتابة فقيدت الفكرة برأس الصفحة حتى يتيسر بيانها.

وأيامًا قليلة فاتتنى كتابة الصفحة وتسجيل الفكرة فتداركت ما فات بعد قليل.

اجتمع لى عدد أيام السنة الشمسية خاطرات سميتها "الشوارد"، وحرصت على المسارعة إلى نثرها، ولكن عدا الزمان، وكرت الأيام، فإذا عام يمضى قبل الطبع، ولو قُيدت سانحاته لائتلف كتاب آخر.

فأخذت للنشر أهبته وسارعت إلى طبع الشوارد فى مطبعة العرب من مدينة "كراجى" تعديلاً لإخراج الكتاب، وإيثارًا لإشرافى على طبعه تحرزًا مما يلحق بالكتب حين تطبع فى غيبة أصحابها.

وهائنذا أزف إلى قراء العربية بنات الأفكار، وربائب الليل والنهار، أجلو هذه

السانحات، وأعرض هذه الخاطرات. آملاً أن تجد من العناية كفأ الصدق الذى أملاها، والإخلاص الذى ألحمها وأسداها.

وحسبى الله وكفى، ، ،

عبد الوهاب عزام

"كراجى" رابع رمضان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة

وألف من الهجرة ٢٩ أيار ١٩٥٢م

❖ ❖ ❖

إن موضوع هذا الكتاب يشتمل على خطوات نابعة من اليقين، مستمدة من الإيمان، مصوغة فى شكل حكمة، أو إطار خبر، أو صيغة موعظة، أو موعظة نادرة، أو استهداف منفعة، أو تلافى مضرَّة، أو سيرة عالم، أو فضيلة ملك.

وهكذا صاغ أستاذنا محتوياته. ومن محتويات هذه "الشوارد" وموضوعاتها: قواعد السعادة، "إذا لم تستح فاصنع ما شئت"، تفاوت العقول، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1]، الشباب الأبى، المشيب القوى، السير فى الحرم، أين عكاظ؟، أحرار مقيدون وعبيد مُسَيَّسون، البكور يطيل العمر، البداوة والحضارة، الأذان بين التركية والعربية، مقتل على، دار خديجة (أم المؤمنين)، ضوضاء هذه المدنية، التراويح فى الحرم، غرور الإنسان، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[2]، آداب الضيافة عند العرب، الكتب وأصحابها، صحبة الحيوان، طلبة العلم، عز الطاعة وذل المعصية، الكريم يستحى من نفسه، سن الإنسان ما يحسه لا ما يعده، الصحراء أفسح للمدن والقرى، طغيان البناء على الزرع، أخلاقنا، ذلك هدى الله، أساليب العجمة فى اللغة العربية، الحضارة الفاسدة، سير الزمن، من المهد إلى اللحد، الحق يجمع والهوى يفرق، آدابنا، الكلمة الطيبة والعمل الصالح.

---

(١) الرعد / ١٥.

(١) الرعد / ١١.

إن ذكر تلك العناوين وما شابهها هى مرغبات للقارئ الكريم عن وجوه تلك الشوارد الحديثة، فإذ لم يكن بدّ من التمثل لبعضها فليكن ذلك فاتحتها، ونهايتها، وخاتمتها: أما فاتحتها فعنوانها: "فاتحة"، وأما نهايتها فعنوانها: "الثبات والقلق". أما خاتمتها فعنوانها: "الخاتمة".

فاتحة:

يدور الفلك وتمر السنوات وتعدو بنا الأيام، والإنسان مشدوه بعدوها، يكاد يغلب على عدها. وهو كراكب السفينة الباخرة السريعة، ينظر وراءها فإذا البحر مزبد والماء مسرع، وإذا صفحة من اللج بعد صفحة، ولجة من البحر بعد لجة، لا يستطيع توقفًا ولا تريثًا. ورحم الله الشاعر أسد الله غالبًا يقول:

أسومُ جواد العمر ريثًا وماله ركابٌ برجلى أو عنان بأنملى

ومن مات كمن سقط على اللج، تجوزه السفينة، ويبعد عنه الركب، وينأى عن البصر، ثم عن الذكر.

وليس يثبت فى هذا الجريان إلا عمل صالح يبقى سنة فى الحياة، وإلا قول طيب يبقى هدى للأحياء.

فمن شاء ألا تمضى به الأيام سدى، فليجتهد أن يبارى الأيام ويسابق الزمان مسارعة إلى الخيرات، وبدارًا إلى الحسنات، بكلمة طيبة أو عمل صالح أو علم ينفع الناس أو فكر يضىء فى أرجاء هذه الأرض.

إن الإنسان ليغفل فيعطل فكره أو يتده؛ ولكن الأيام لا تقف والفلك لا يغفل، فاجتهد ما استطعت أن يدأب فكرك ويدك نصرة للحق وفعلاً للخير.

الثبات والقلق

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.[1]

(١) إبراهيم / ٢٧.

الحق فى كل أمر من الأمور واحد، والباطل فيه لا يحد ولا يعد. إن فعل إنسان فعلاً فالحق أنه فعله، والباطل أن زيدًا أو عمرًا أو من شئت من البشر قد فعله. وهى دعوى لا تعد وحذر لا يحد.

وكذلك العدل فى قضية واحد، والجور لا يحصيه عقل ولا يضبطه حساب، فإن استحق إنسان أن يعطى ألف دينار، فالعدل إعطاؤه الألف، والجور ألا تعطيه شيئا أو تعطيه ما شاء الجور ما لا يعدل ألفًا.

هكذا النظام والفوضى، والحسن والقبح. النظام فى الأمور صورة واحدة أو صور معدودة، والفوضى الفوضى، والحسن فى شىء له صورة أو صور قليلة حسية أو معنوية، والقبح ما خالف هذه الصور، وهذا نفى لا يحصى ولا يستقصى.

فالمحق والعادل، والمؤثر للنظام، والآخذ بالحسن أو الأحسن، يسيرون على محجة واضحة لا ضلال فيها ولا حيد ولا قلق، ولا اضطراب ولا حيرة؛ لأنهم على هذه الأرض قوانين الله التى تسير خليقته.

وأعوذ بالله من شتات الفكر والقول والفعل الذى يلده الباطل وما اتصل به واشتق منه، وأعوذ بالله من حيرة النفس وقلق البال، واضطراب العمل، والشقاق والفوضى والهرج والمرج التى يؤدى إليها الجور، إن أس الحياة الثبات، ولا يثبت إلا الحق والعدل، وما مت إليهما واتصل بهما، فثبت نفسك بالإيمان والحق، وأقرها بالعدل والخير.

الخاتمة

هذه الكلمة يتم بها الحول فى هذه الخاطرات، يتم بها الحول الشمسى، كتبت الكلمة الأولى فى مدينة جدة يوم الثلاثاء لثلاث وعشرين خلت من جمادى الثانية سنة تسع وستين وثلاثمائة وألف من الهجرة (١١ نيسان، إبريل ـ سنة ١٩٥٠م).

كتبت فى الحجاز زهاء أربعة أشهر، وفى مصر نحو ثمانين يومًا، وفى البحر بين مصر وباكستان عشرة أيام، وأتممت العام فى كراجى.

حرصت على أن أكتب كل يوم فكرة تعن لى فيسر الله لى الكتابة أكثر الأيام، وفاتنى تسطير الصحائف أيامًا؛ ولكن لم يفتنى تسجيل الفكرة فى رأس الصفحة إلى أن أفرغ للكتابة إلا قليلاً.

هذا العام الماضى من خير أعوامى توفيقًا وعملاً: فقد تيسر، على العلاّت، تسجيل هذه الكلمات، وتيسر لى تحقيق أمل قديم إذ ترجمت ديوان المشرق[1] للشاعر الفيلسوف محمد إقبال. وهو يطبع اليوم فى كراجى قد أوفى على التمام، ويسر الله معه إتمام"اللمعات" وقد أتى النظم فى الديوان، وفى اللمعات فى ثلاثة أشهر بتوفيق من الله الملهم، وكنت أخلس أوقاتًا للنظم بين شواغل متوالية وأعمال ملحفة.

إن العمل يؤدى إلى العمل، والنجاح يفضى إلى النجاح، ونعوذ بالله من بطالة تسلم إلى بطالة، وإخفاق يتصل بإخفاق.

وإذا عزم الإنسان فبدأ فسار، انقلب العمل لذة، والمشقة يسرًا، والكره حبًا، وبدأ الإنسان من مراحل الطريق ومنازله، ومن معارفه ومجاهله مالم يحتسب من قبل، والله نسأل الإلهام والتعليم والتوفيق والتسديد.

﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

كان أستاذنا وشيخنا الدكتور عبد الوهاب عزام بك خزانة من العلم الوفير، وبحرًا من الأدب بلاشطآن، ونبعًا من الشعر الأصيل، فى أربع من اللغات الإسلامية وأكثر من لغة أوربية، ثم كان بالإضافة إلى ذلك مدرسة فى الدبلوماسية العربية الإسلامية، ولا غرابة فى ذلك فقد كان الخلفاء المسلمون وتابعوهم من الملوك فى العصور الأموية والعباسية وما تبعها من إمارات كالطولونين والأخشيديين والحمدانين والبويهيين والسلاجقة والأتراك والعُبيدين وملوك الأندلس يختارون سفراءهم من العلماء الذين عرفوا بالحكمةوالموسوعية،

---

(١) المقصود بيام مشرق. المؤلف.

(١) البقرة / ٣٢.

ومن ثمّ كانت سفارتهم تكلل بالنجاح وتتوج بالفلاح. وإن حديث تلك السفارات ممتع وأحداثه مترعة بالنوادر مفعمة بالغرائب.

لقد شغل أستاذنا منصب السفارة للملكة المصرية لدى المملكة العربية السعودية حين أريد للعلاقة بين الدولتين والنماء والازدهار، وكان أستاذنا قد دُعى إلى واحدة من الحفلات التى أقامها ملك مصر (فاروق الأول) للملك عبد العزيز بن سعود إبان زيارته الرسمية لمصر فى أواخر الأربعينيات من القرن العشرين المنصرم، وفى ذلك الحفل أنشد أستاذنا قصيدة ترحيب بالملك عبد العزيز جعلت عينيه لا تحولان عن التطلع إلى أستاذنا وهو ينشد شعره بثبات قلب، ومهابة طلعة، وفصاحة لسان، وتوهج جنان. وكان المرحوم الزعيم العربى الكبير عبد الرحمن عزام (باشا) منشئ الجامعة ومؤسسها حاضرًا مبهورًا بفصاحة ابن أخيه الدكتور عبد الوهاب، فأسر فى أذن الملك فاروق كلمة أو كلمتين أسفرتا عن صدور مرسوم ملكى بتولية أستاذنا منصب السفير المصرى لدى المملكة العربية السعودية، وكان مقام أستاذنا بين السفراء لدى السعودية شامخًا لعلمه وفضله ودينه وحكمته.

وبعد عدة سنين نقل أستاذنا سفيرًا لدى باكستان التى عرفته عالمًا بلغتها وتاريخ كفاحها، وحين نشبت مشكلة ما كان يسمى "بحلف بغداد"، وكان حلفًا مشبوهًا، قام أستاذنا بتوضيح أهدافه الكريهة لرئيس دولة باكستان مثنيًا إياه عن الانضمام إلى ذلك الحلف، وسمع منه وعدًا بذلك وأعطاه عهدًا بألا يفعل، ثم فوجئ أستاذنا بنكوص دولة باكستان عن عهدها، فما كان منه إلا أن تصرف تصرف السفير العالم فأرسل برقية "مفتوحة" إلى القاهرة يطلب نقله من كراتشى ـ أو كراجى[1] ـ كما كان يكتبها فبذلت باكستان معه كل مسعى للبقاء، ولكن السفراء العلماء المسلمين القدامى ـ وكان ذلك نهجهم ـ لم يكونوا يحتملون مثل هذا التخبط من البلدان التى يسافرون إليها، فكان صنيع أستاذنا مثل صنيع أسلافه من السفراء العلماء، وغادر باكستان عائدًا مرة أخرى إلى "جدة" العاصمة

(١) كراجى. أى بالجيم الفارسية المثلثة ج وتنطق مثل ch ـ المؤلف.

السياسية آنذاك للملكة العربية مديرًا لجامعة الملك سعود ١٩٥٧ ، وقد توفى فى ١٨ يناير ١٩٥٩.

وإن المتتبع لما سطرناه فى الصفحات السابقة يعلم أن أستاذنا لم يتوقف يومًا واحدًا عن بذل العلم وتسطيره، ولم ينصرف ليلة واحدة من إمساك اليراع يسطر علمًا أو ينشئ شعرًا أو يذيع حكمةً أو ينشر فضلاً.

الدكتور عزام العالم الموسوعى:

فى هذا المؤلف النفيس الذى سهر على إنشائه زميلنا وصديقنا العالم الجليل عن أستاذه ـ وأستاذى ـ عبد الوهاب عزام صورة صادقة باهرة أقرب إلى الكمال، وذلك شيم التلاميذ الأوفياء عن أساتذتهم وقد منحت نفسى ـ تفضلاً من الأستاذ المؤلف ـ بعض الاستطراد فى موضوعات سجلها بقلمه فى وضوح، وطرقها ببيانه فى جلاء، وأذن لى أن أضيف شيئًا عن شيخى وشيخه عبد الوهاب عزام فى ساحة العلم وباحة المعرفة فى رحاب كلية الآداب، فإننى ما زلت أذكر أداءه وهو يعلمنا فى القاعة رقم ١٨ وصوته الهادئ الواضح ينسرب إلى أسماعنا، ينشر علمًا، ويوزع فضلاً وأدبًا فى نهج من الإبهار غير مسبوق، وضرب من الإيقاع لم يتكرر عند غيره، ولهفة منا إلى السماع والإنصات والإعجاب لم تتكرر من غير الدفعة التى إليها ننتمى إلا من أتراب لنا فى ساحته، وصحاب لنا فى حضرته. وأذكر أن أستاذنا لم يكن يقف منا مجرد موقف الأستاذ الذى ينشر علمًا وحسب وإنما كان يشجعنا على النشاط القومى والأدبى، فقد شجع جيلنا على إنشاء "جمعية الطلاب العرب" لتوكيد الصلة بيننا نحن الطلاب المصريين والطلاب الوافدين من الأقطار العربية، وظل يؤازرنا حتى صارت جمعية الطلبة العرب منتشرة فى بقية كليات جامعة فؤاد الأول. ومرة أخرى مازلت أذكر حفل افتتاح الجمعية، وكان أستاذنا ورائدنا قد دعا إليها أكبر عدد من أساتذة الكلية وبخاصة من كان يُطلق عليهم الأساتذة الرواد، وقد تطوع كل أستاذ بإلقاء كلمة تحية تشجيع، ولما جاء الدور على الأستاذ الدكتور طه حسين فإنى أذكر قوله: إننى لم آت إلى هذا الحفل إلا لأن صديقى الدكتور عزام

قد دعانى إليه ومن ثمّ لبيت دعوته، أما عن العروبة فإننى لست عربيّا وإنما أنا مصرى، وإن وجودى معكم لا يعنى شيئًا غير ذلك.

فلما انتهى الأساتذة من إلقاء كلماتهم المشجعة، وانتهى أستاذنا طه حسين من إلقاء كلمته غير المشجعة، قام أستاذنا ووجهه ينهل بشرًا وسماحة، وتكلم عن العرب والعروبة على النهج الذى ألفناه منه ثم قال: **أما نحن المصريين فكلنا بغير استثناء عرب، ونحن نفخر بعروبتنا لأن الإسلام عرَّبنا جميعًا.**

كان طبيعيّا أن أذكر شيئًا من رعاية أستاذنا لنا كطلاب محبين له بل كأبناء، ولكن حديث ذلك يطول ومكانه مفصلاً فى كتابنا "فى صحبة أساتذتى طالبًا بجامعة فؤاد الأول".

لنعد بسرعة إلى توصيف أستاذنا عبد الوهاب عزام فنقرر أنه عالم موسوعى، وأنه يُعد امتدادًا لكوكبة العلماء المسلمين الذين عرفوا بالموسوعية، وكان الواحد منهم يكتب فى كل فن من فنون المعرفة عددًا من الكتب حتى ليظن أنه متخصص فى ذلك العلم دون غيره، والأمثلة على ذلك لا تكاد تحصى لكثرتها ووفرتها.

فإذا كان الأمر متعلقًا بأستاذنا عبد الوهاب عزام فإننا نجده وافر العطاء فى العلوم الإسلامية والعربية من عقيدة وتفسير وحديث وفقه وعلوم قرآنية وسيرة نبوية وتاريخ إسلامى وتصوف، وحكمة، وأخلاق، وتراجم العلماء المسلمين، وطبقات، والأدب العربى بكل فنونه وعصوره وموضوعاته، وعلوم اللغة، والخط العربى، وتحقيق التراث، والنحو، والصرف، والعروض، والبلاغة، وعلم البلدان والرحلات.

ويضاف إلى ذلك إجادته لغات الشعوب الإسلامية قراءةً وكتابةً وتأليفًا وخطابًا كاللغة الفارسية وآدابها والتأليف بها، وترجمة شعرها شعرًا إلى اللغة العربية، وقول الشعر باللغة الفارسية، وما يقال عن الفارسية يقال عن اللغة

التركية وآدابها، والحقيقة نفسها تقال عن اللغة الأوردية لغة باكستان ومسلمى الهند.

وأستاذنا مجيدٌ لأكثر من لغة أوربية وبخاصة اللغتين الإنجليزية والفرنسية، ثم هو بعد ذلك كله فارس من فرسان الدبلوماسية المصرية العربية والإسلامية.

وإذن فأستاذنا يُعد نسيج وحده، وفريد عصره، فى المنحة الربانية، بكونه العالم الموسوعى الأوحد ـ بالمفهوم الإسلامى ـ فى زماننا، ذلك أن ما عددنا له من حيازة العلوم التى ذكرناها ـ حيازة علمية متكاملة ـ لم تتوفر لغيره من معاصريه من أترابه العلماء الذين نحترمهم ونجلهم، وإذا كان بعض أبناء زماننا من مؤرخى العلوم والآداب واللغات قد فاتهم أن ينتبهوا إلى فضائل عبد الوهاب عزام وموسوعيته العلمية، وشمائله الإنسانية.. فإن الزمان لا يزال متسع الصدر لحملة الأقلام الذين سوف يوفون عبد الوهاب عزام حقه، ويبوئونه مكانته فى صفحات من التاريخ فسيحة، وأوراق من الحضارة نضرة مورقة.

وأما أخونا وزميلنا العالم الجليل الأستاذ الدكتور السباعى محمد السباعى مؤلف هذا الكتاب، فإن ما بذله من جهد، وما أظهره من وفاء، وما قدمه من فضل فهو محل للتقدير وموضع للشكر، وإن له فضل الريادة وأجرها بإذن الله، نسأله أن يوليه رعايته ويبارك فى عمره ويمد فى حياته.

هذا والشكر لله أولاً وآخرًا، ومنه التوفيق والسداد، وعليه سبحانه قصد السبيل.

مصطفى الشكعة

مصر الجديدة

فجر الأربعاء ٢١من ذى القعدة ١٤٢٤هـ / ١٤ من يناير ٢٠٠٤م

الديباجة

عرفت العربية عبد الوهاب عزام، علمًا من أعلام الفكر والقلم واللسان.. وعرفته الفارسية والتركية والأردية، عالمًا فاضلاً، مؤمنًا بالثقافة الإسلامية ووحدتها. وأنها نسيج واحد. صنعت مع العربية لحمة الحضارة الإسلامية وسداها، فكانت حلقة وصل من حلقات الحضارة الإنسانية.

أدرك عزام ذلك، وأدرك أن عليه الكثير من الواجبات حتى يحقق لأبناء الأمة الإسلامية، ما يوحد بينهم، ويظهر لهم ما يجمعهم من وشائج، ويجلى لهم ما جادت به قرائح مفكرى العالم الإسلامى، بلغاته المختلفة.

فكان أستاذًا، أديبًا، كاتبًا، شاعرًا، مترجمًا، ناقدًا، رائدًا، مفكرًا، سياسيًا، مجمعيًا. رغم الصفات الفارقة أحيانًا لكل صفة من تلك الصفات.

من هنا كان الإقدام على الكتابة عن واحد يحمل تلك الصفات، أمرًا ليس بالهين أو اليسير.

كان إيمانه بوحدة الفكر الإسلامى وسموه وإيجابيته، وقدرته على حض المسلمين على التمسك بما لديهم من كنوز فكرية، كى يستيقظوا من سباتهم، فيقبلوا ما فرضته عليهم الحضارة الغربية من تحديات.

وكانت المعرفة المتعمقة لهذا التراث الإسلامى بلغاته المختلفة، وكان إيمانه بالترجمة، وتجميع المفكرين من العالم الإسلامى، وتقوية الروابط معهم، وسيلة لتحقيق ما يصبو إليه.

شغل موقع التدريس فى الجامعة، حتى بلغ درجة الأستاذية، فى تخصص

الدراسات الشرقية بمعناها الشامل والواسع كأول أستاذ فى هذا المجال. وكان أستاذا مبرزا وما خلفه من أعمال تشهد بعلو كعبه وطول قامته، سواء فى مجال اللغة العربية وآدابها، أو فى اللغات الشرقية الإسلامية الأخرى، الفارسية والتركية والأردية، مع إيمانه الكبير بضرورة الوقوف المتعمق على الفكر الأوروبى والحضارة الأوربية، والأخذ منها وعدم غض الطرف عنها. فقد جمع فى تكوينه العلمى بين الجانبين الإسلامى الشرقى والغربى. لم يكتف عزام بدراسة تلك اللغات وآدابها ونقلها إلى العربية، بل درس وكتب فى تاريخ شعوبها، وحضارتها، موضحا ما بينها من صلات وما يجمع بينها من وشائج القربى التى تجعل الأمة الإسلامية أمة واحدة، تكون كما أراد الله لها: ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[1].

فكانت مؤلفاته التى بلغت نيفا وثلاثين مؤلفا، وكانت مقالاته فى مجلتى الرسالة والثقافة اللتين أنشئتا فى عامى ٣٣، ١٩٣٩، وكان إشرافه على تلاميذه فى الدراسات العليا وإنشاؤه لمعهد اللغات الشرقية بالقاهرة، والذى تحول فيما بعد إلى أقسام اللغات الشرقية بالجامعات المصرية، وكانت بحوثه فى المؤتمرات الدولية، وكانت سفراته الأدبية والسياسية، وكان دوره فى إنشاء جامعة الرياض (الملك سعود حاليا) كان هذا كله أداء لدوره الفكرى والسياسى مع أبناء جيله. ومع هذا كله، لم يحظ عزام بما يستحق بين أبناء جيلنا. وربما كان من أسباب ذلك المناخ الفكرى الذى ساد مصر والأمة العربية والإسلامية آنذاك. وربما يرجع ذلك إلى قلة تلاميذه، أو إلى أن جل مقالاته كانت فى مجلتى الرسالة والثقافة، حيث بلغت فى الرسالة ثلاثمائة مقالة، وفى الثقافة زهاء أربع وستين، وقد توقفت الرسالة بعد عشرين عاما من صدورها، كما توقفت الثقافة وأضحتا تراثا لا يسعى إليه ويمعن النظر فيه سوى الباحثين الجادين.

أو يرجع ذلك إلى عدم طباعة مؤلفاته ونشرها من جديد. فلم يطبع منها سوى القليل القليل. كما حدث بالنسبة لدراسته عن كليلة ودمنة ودراسته عن المتنبى. وشاهنامة الفردوسى التى صدرت عن الهيئة العامة للكتاب فى مجلدين، وعن دار سعاد الصباح بالقاهرة فى ثوب قشيب.

---

(١) آل عمران/ ١١٠.

وبعد...

فهذه محاولة سعيت من خلالها لإلقاء الضوء على فكر هذا الرائد، والوقوف على كنه أفكاره، وإماطة اللثام عن مؤلفاته، وإبراز دوره الفكرى لأبناء هذا الجيل.

وقد ركزت فى كتابى هذا على دراسة مقالاته العديدة، وأبرزت آراءه ومواقفه التى تضمنتها تلك المقالات. وأظهرت دوره ورأيه وفكره فيما سيطر على المجتمع المصرى والعربى والإسلامى من تيارات وآراء وقضايا منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى بعد منتصف القرن العشرين والتى كان من أبرزها: موقف الإسلام من الحضارة الغربية بجوانبها المختلفة، وأوضاع العالم الإسلامى المتردية، والتيارات المتباينة التى مزقت أبناءه، فتصارعت الأفكار، وانبهمت الرؤى، وظهرت تيارات ثلاثة، منها ما أثير من مشكلات حول الأبجدية العربية والخط العربى ونواقصه ومثالبه، واعتباره العائق الأكبر فى سبيل التقدم والأخذ بالعلوم الحديثة التى بلغت بها أوروبا ما بلغت من تقدم: وكيف قاد هذا التيار عدد من أبناء الأمة الإسلامية، كتبوا بالفارسية، اللغة الثانية فى العالم الإسلامى، وعلى رأسهم: آخو ند زادة ثم ميرزا ملكوم خان وسعيهما إلى نشر فكرهما فى تركيا وإيران وباقى العالم الإسلامى، وما ثار فى مصر على يد عبدالعزيز فهمى حين قدم اقتراحه إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة (مجمع فؤاد الأول). وما أعقب ذلك من مناقشات ومجادلات، كان دور عزام فيها كبيرًا. وكان حتمًا علىّ التصدى لذلك وإبراز دوره، وهو ما أغفله عن التصريح به عبدالعزيز فهمى فى كتابه الذى ردّ فيه على مخالفيه.

كما تناولت المقالات العرب وما أصابهم، والأمة المصرية وما اعتراها من ضروب التشتت والتمزق.

ثم إدراك عزام لمناهج التفسير المتبعة للقرآن الكريم، فقدمت نموذجًا رأيت فيه فكرًا جديدًا، حين تناول عزام تفسير الآيات الأولى من سورة الروم وكيف طبق منهج التفسير اللغوى ليصل بالقارئ إلى رأى جدير بالمعرفة، فضلاً عن المقالات والدراسات التى أظهرت عزام رائدًا وشاعرًا وعالمًا باللغات الشرقية وآدابها.

سبقتنى دراسات ومقالات تحدثت عن عزام، وهى جديرة بكل التقدير منها؛ الدراسة التى قام بها الأستاذ الدكتور محمد زكى المحاسنى، والأستاذ محمود الجبالى، وما ذكرته مؤلفات أخرى عنه، ثم ما قدّم فى حفل تأبينه بالمجمع من كلمات الرثاء، وعبارات التقدير.

ولكن العالِم كما يقول عزام - يحيا بحياة علمه، ويخلد ما بقيت آثاره، ويبقى له فى نفس كل مستفيد ذكر، وعلى لسان كل متعلم ثناء.. رحم الله مولانا جلال الدين الرومى، شاعر الصوفية الأكبر، والذى ترجم له عبدالوهاب عزام هذا البيت الذى يناسب المقام، حين قال:

فلا تطلبن فى الأرض قبرى صدور الرجال العارفين مزارى

كان عزام يرى أن الإنسان فى حياته كراكب السفينة السريعة، لا يستطيع تريثًا ولا توقفًا.

لذا نقل عن الأوردية للشاعر الهندى المسلم (قبل قيام دولة باكستان) أسد الله غالب:

أسوم جواد العمر ريثا وماله ركاب برجلى أو عنان بأنملى

ومن مات كمن سقط فى اللج، يغشاه موج من فوقه موج، من فوقه سحاب، تجوزه السفينة، ويبعد عنه الركب، وينأى عن البصر، ثم عن الذكر.

وليس يثبت فى هذا الجريان إلا عمل صالح، يبقى سنة فى الحياة، وإلا قول طيب يبقى هدى للأحياء، فمن شاء ألا تمضى به الأيام سدى، فليجتهد أن يبارى الأيام، ويسابق الزمان مسارعة للخيرات بكلمة طيبة أو عمل صالح أو علم ينفع الناس، أو فكر يضىء فى أرجاء هذه الأرض.

اقتباسًا من الحديث النبوى الشريف:

"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: **صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**".

ولعزام كل ذلك فبنوة أصلابه وبنوة العلم التى تدانى، أو تكاد تساوى بنوة

الأصلاب قائمة، وعلمه لا يزال يضيء قلوب القراء والعارفين، والصدقة الجارية كثيرة، علمها عند ربى.

وأخيرًا.. فقد هدفت من هذا الكتاب، إظهار ما سطّره يراع أستاذنا ونسجه فكر رائد الدراسات الشرقية فى مصر والعالم العربى، حتى يقف أبناء هذا الجيل على إبداع فكره، وسمو أدبه، وغيرته على العربية والإسلام وعدم معاداته للحضارة الغربية، حين قال: ابدأوا بأنفسكم فاعرفوها، وبمآثركم فعظّموها، ثم اعرفوا للآخرين أقدارهم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم.. فيها الجيد الذى يجب الأخذ به.

ومن هنا كان اهتمامه بتراث أبناء الأمة الإسلامية، الذى كُتب بجانب العربية، بالفارسية والتركية والأوردية.

لذا فإنى أدعو إلى نشر كتبه، ودراسات كثيرة عنه وعن مقالاته، راجيا أن يكون هذا العمل جديرًا بدور هذا الأستاذ الرائد، والمفكر الغيور على الإسلام وتراثه والأمة العربية وتاريخها.

وأستسمح عزام أن أنقل عنه ما سطره من مثنوية قدم بها كتاب المثانى وأهداه إلى والديه بقوله:

من وراء السنين أهدى كتابًا　　فيه من حكمة الحياة سطور

فى مكان به القريب بعيـد　　وزمان بـه القليـل كثيـر

وأخيرًا الشكر موصول ووافر لآل عزام، فهم منبت فكرة هذا الكتاب رحم الله عزام، وأرجو ان ينال من القراء والدارسين الرضى والقبول..

والله من وراء القصد، ، ،

دكتور السباعى محمد السباعى

السابع من شهر صفر ١٤٢٠ هـ ـ مايو ١٩٩٩م